الباب الثانى

الطراز العباسى

العصر العباسى الأول (١٣٢ – ٤٤٧ هـ) (٧٥٠ – ١٠٥٥ م)

العراق وشمال أفريقيا – مصر – إيران – خراسان – أفغانستان :

كثرت الاضطرابات فى أواخر عهد الدولة الأموية وكان ذلك فى فترة حكم مروان الثانى الذى اتخذ حران عاصمة له ، وفى عام ١٢٩ هـ – ٧٤٧ م جاهر العباسيون بعدائهم للأمويين واتهموهم بإهمال شئون الدولة الإسلامية ، وتمكنوا من هزيمة الخليفة مروان فى موقعة الزاب عام ١٣٢ هـ – ٧٥٠ م ، ففر إلى مصر وبذلك تم للعباسيين الاستيلاء على الخلافة الإسلامية عام ٧٥٠ م .

فضل العباسيون نقل مقر حكم الخلافة الإسلامية من دمشق مركز نفوذ الأمويين إلى مكان قريب من إيران التى ظهرت فيها الاضطرابات ضد الأمويين ، فوقع اختيار أبى العباس – شقيق إبراهيم رأس البيت العباسى – على الكوفة فى جنوب العراق لتكون مركزاً للحكم العباسى . وفى عهد خليفته « أبى جعفر المنصور » (١٣٦ – ١٥٧ هـ) (٧٥٤ م – ٧٧٥م) أنشئت عاصمة جديدة للدولة العباسية فى عام ١٤٤هـ – ٧٦٢ م عرفت باسم بغداد ، وبذلك استبدل حكم الأمويين للعالم الإسلامى بالحكم العباسى . وكان من نتائج انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد القريبة من المدائن عاصمة الساسانيين ، أن ظهر لأول مرة نفوذ عنصر غير عربى فى حكم البلاد الإسلامية هو العنصر الفارسى الذى ساعد رجاله العباسيين على الاستيلاء على الخلافة الإسلامية . ولقد كافأهم الحكام العباسيون بتعيينهم فى مناصب كبيرة ، كما اعتمد الخلفاء على وزراء من أسرة البرامكة الفارسية . ولقد شجع الوزراء الفرس انتشار التقاليد الفارسية فى البلاد الإسلامية التى انفرد العرب وحدهم قبل ذلك بتسيير شئونها . ولقد أدى ذلك إلى تفوق الثقافة الفارسية على الثقافة العربية فى تلك البلاد .

حاول أبو إسحق المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) (٨٣٣ – ٨٤٢ م) الحد من نفوذ العنصر الفارسى وذلك باتخاذ حرس خاص له من بين الولايات التركية الموالية للخلافة العباسية فى بعض أقاليم آسيا الغربية[١] ، حيث كانوا بطبيعتهم رجال حرب . وكان ذلك بدء ظهور العنصر التركى فى الدولة العباسية ، إلا أن بأسهم سرعان ما عظم إلى درجة أن تمكن زعماؤهم من التحكم فى الخليفة المعتصم ، وصاروا الحكام الفعليين للدولة العباسية التى شمل حكمها العراق ومصر وإيران وخراسان وشمال أفريقيا وسوريا .

كان من أثر ضعف الخلافة العباسية فى القرن الثالث الهجرى « التاسع الميلادى» أن أخذت بعض البلاد التابعة للدولة العباسية تنفض تباعاً عن السلطة المركزية وتستقل سياسيًّا بحكومتها . فأقام « الأغالبة» دولة مستقلة فى شمال أفريقيا مركزها تونس فى أوائل القرن التاسع الميلادى [٢]، كما استقل « إدريس بن عبد الله المغربى» بحكم شمال غرب أفريقيا . واستطاع الولاة الفرس الاستقلال بولايتهم عن الحكومة المركزية فى بغداد ، فأسس السمانيون والبويهيون فى أوائل القرن التاسع والعاشر الميلادى دويلات مستقلة فى العراق وشرق إيران وبلاد ما وراء النهر . ونتج عن هذا الاستقلال السياسى استقلال فى الأسلوب الفنى فى بلاد الفرس وكان من نتيجته إحياء التقاليد القومية الساسانية وتشجيعها على الازدهار والانتشار . ولقد استمرت بعض التقاليد التركية مزدهرة فى مصر التى استقل بحكمها أحمد بن طولون التركى الأصل بعد منتصف القرن الثالث الهجرى – التاسع الميلادى . وفى أواخر القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى أقام الغزنويون الأتراك حكومات مستقلة فى أفغانستان والبنجاب بالهند .

ولقد كان العنصر التركى الذى ساند الخلافة العباسية فى أوائل القرن التاسع الميلادى سبباً فى ضعف نفوذها السياسى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث تمكن السلاجقة الأتراك الذين نجحوا فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى فى القضاء

---

(١) كانت الجندية مقصورة على العرب حتى عهد الخليفة أبى إسحاق المعتصم الذى كانت أمه تركية فأكثر من الجند الأتراك فى عاصمته .

(٢) بالرغم من استقلال الأغالبة بحكم شمال أفريقيا وتوارثهم الحكم فيها من ١٨٤ – ٢٩٦هـ ٨٠٠ – ٩٠٩ م إلا أن الحكام العباسيين استمروا فى تعيين ولاة من بغداد يحكمون مع الأغالبة .

على الأسر الحاكمة فى أفغانستان وخراسان وإيران وآسيا الصغرى وسوريا ، من دخول مدينة بغداد عام ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م والاستيلاء على الحكم فى فترة حكم الخليفة القائم بالله ، وأرغموا الخليفة على تنصيب زعيمهم (طغرل بك) سلطاناً . وكانت بغداد حين دمرها المغول عام ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م ولاية سلجوقية .

ويمكن تقسيم الدولة العباسية الأولى إلى فترتين : الفترة الأولى وتمتد منذ نشأة الدولة عام ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م إلى آخر أيام المأمون عام ٢١٨ هـ — ٨٣٣ م ، وفيها بلغت الدولة قمة مجدها الحضارى وتعرف بالعصر الزاهر . والفترة الثانية تبتدئ بخلافة المعتصم وتنتهى باستيلاء السلاجقة على الدولة العباسية . ولقد ضعفت الدولة فيها واستقل ولاتهم بحكم الولايات التى يحكمونها . .

الفصل الأول

العراق
وشمال إفريقيا

أصبحت بغداد العاصمة الجديدة مركزاً مهماً للعلوم والفنون الإسلامية . كما نافست القسطنطينية عاصمة الرومان الشرقيين فى رخائها المادى ، ولقد ذاع صيت بغداد فى عهد هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين (١٧٠ — ١٩٣ هـ) (٧٨٦ — ٨٠٩ م) . وظلت بغداد محتفظة بأهميتها الثقافية فى العالم الإسلامى حتى الغزو المغولى . ولم تقلل فترة سيطرة السلاجقة على الخليفة من أهميتها .

قلد الخلفاء العباسيون الحكام الساسانيين فى تشييد عواصم جديدة لهم بمجرد توليهم الحكم ، فشيد المعتصم عاصمة جديدة شمال بغداد فى سنة ٢٢١ هـ — ٨٣٦ م عرفت باسم **سمراء** [١] وكانت مقر الحكم لثمانية من الخلفاء فى الفترة (٢٢١ — ٢٧٩ هـ) (٨٣٦ — ٨٩٢ م) .

كما شيد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) (٨٤٧ — ٨٦١ م) الذى كان من أعظم الخلفاء العباسيين قبل وفاته ، عاصمة جديدة شمال سمراء أسماها الجعفرية (أبو دلف) . إلا أن سمراء لم تعد إلى عزها القديم بعد أن انتقل مقر الحكم مرة ثانية إلى بغداد فى عصر المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) (٨٧٠ — ٨٩٢ م) .

العمارة :

لم يترك التدمير الذى أصاب مدينة بغداد إثر الغزو المغولى أية آثار معمارية تمكننا من معرفة أية معلومات عنها . وتعتمد معلومات مؤرخى الفنون على بعض المراجع التاريخية التى أشادت بروعة وجمال هذه المدينة [٢] .

---

(١) عندما زادت سيطرة الجنود الأتراك فى بغداد فكر المعتصم فى تركها إلى عاصمة جديدة يشيدها . كريزويل ماقبله ص ٢٥٩ .

(٢) وصف مدينة بغداد جاء فى كتاب « البلدان » لليعقوبى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع الميلادى كذلك كتب عنها بن الجوزى (مناقب بغداد) ص ١٥ .

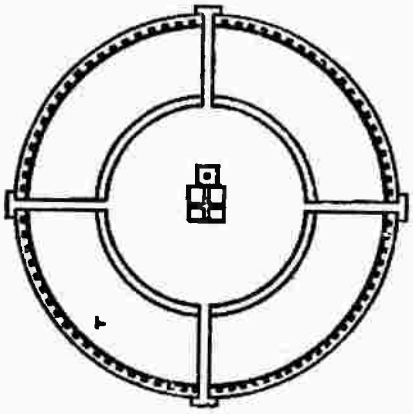

و – تصميم مدينة بغداد

كلف الخليفة أبو جعفر المنصور مهندساً فارسيًا بمهمة تشييد عاصمته الجديدة فاختار لها تصميما على شكل دائرة كاملة ، واستخدم لها العمال الفنيين من جميع أنحاء البلاد الإسلامية . ويحيط بالمدينة (تصميم و) سوران رئيسيان ، الخارجى وتقع به مداخل المدينة الأربعة : باب الكوفة فى اتجاه الشمال ، وباب البصرة فى جهة الجنوب . وباب خراسان فى الجهة الشرقية ، وباب الشام فى الجهة الغربية . ويحيط بالسور الخارجى خندق عرضه ستة أمتار . أما السور الداخلى فهو أكثر ارتفاعاً ويوجد به أبراج مستديرة للحراسة . وقطاع هذه الأسوار عريض ، ويوجد بالجزء العلوى منه دهليز خاص بجند الحراسة مغطى بقبو .

ويقع قصر الخليفة فى مركز الميدان الذى يتوسط المدينة ، وكان يعرف باسم القبة الخضراء أو القصر ذى البوابة الذهبية ، حيث كان يغطى القصر قبة مرتفعة خضراء يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة . وكان يلحق بهذا القصر مسجد كان تصميمه غالباً على نمط المسجد ذى الصحن المكشوف الذى عرف فى العصر الأموى. ويحيط بالميدان الفسيح سوران آخران تقع بينهما مساكن المدينة ، وقد قسمت إلى أربعة أجزاء عن طريق أربعة مداخل ضيقة طويلة ، ويشتمل كل منها على شوارع ضيقة .

ويجتاز الداخل إلى المدينة الخندق عن طريق قنطرة موصلة إلى مدخل طويل ضيق مغطى بقبو نصف أسطوانى . ولا يصل الداخل إلى الفناء المكشوف مباشرة بل عليه أن ينحرف إلى يسار المدخل ، ويعرف المدخل المصمم على هيئة زاوية قائمة باسم المدخل المنحنى .

وتبدو مدينة بغداد بهذا التصميم محصنة تحصيناً منيعاً . فالمدخل المنحنى يساعد على الحد من شدة الهجوم على مداخل المدينة . وتعد هذه المداخل المنحنية ابتكاراً جديداً ظهر فى العمارة الإسلامية لأول مرة . كما أن تزويد أسوار المدينة بأبراج للحراسة لم يعرف من قبل فى العمارة الأموية ، حيث إن أبراج أسوار قصورها كان الغرض منه زخرفيًّا فقط . ووجود القصر فى مركز هذه التحصينات كان فكرة جديدة ظهرت فى العمارة الإسلامية . ومن المرجح أيضاً أن تخطيط قصر « المنصور » كان على نمط القصور الساسانية التى كان بعضها لا يزال قائماً فى المدائن عند تشييد بغداد ، حيث ذكر أن القصر كان يشتمل على فناء للاحتفالات وإيوان ، وقاعة العرش المغطاة بالقبة الخضراء [١] .

ولقد كرر المنصور مرة ثانية هذا التخطيط عندما شيد مدينة قريبة من الرقة على نهر الفرات فى شمال العراق ، كان شكلها على هيئة حدوة حصان ، وأسوارها المزدوجة مشيدة باللبن ومحصنة بأبراج . ولا يزال جزء من سور هذه المدينة قائماً ، ويقع به مدخل عرف باسم مدخل بغداد (ش ١٧) ، قد شيده هارون الرشيد عندما اتخذ الرقة عاصمة له فى الفترة (١٨٠–١٩٢ هـ) (٧٩٦–٨٠٨ م) . ويلاحظ أن شكل العقد المدبب الذى وجد فى مدينة الرقة فى مدخل بغداد لم يعرف من قبل فى سوريا بالرغم من قرب الرقة منها ، علماً بأنه كان معروفاً فى عمارة المدائن الساسانية [٢] .

ويمكن نسبة تصميم بغداد الدائرى إلى العمارة الفارسية ، حيث شيد الملك « أردشير » مؤسس الدولة الساسانية عاصمته « فيروز آباد » على شكل دائرة . ولقد نقل ذلك عن أسلافه البارزين الذين شيدوا مدينة « هاترا » على شكل دائرة .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ .

(٢) يميز مدخل قصر المدائن عقد مدبب (انظر كتابنا « فنون الشرق الأوسط القديم » ماقبله ص ٢٩٦ شكل ٢٢٦) .

كذلك ربما نقل العباسيون فكرة تحصين المدينة بأسوار مدعمة بأبراج الحراسة من أسوار مدينة بابل المحصنة التى وجدت فى العراق القديم[١].

استقدم « المعتصم » العمال المهرة والفنيين من كل أنحاء الإمبراطورية لتشييد العاصمة **سمراء** ، وكانت هذه المدينة تعد من أجمل المدن التى شيدها الحكام المسلمون . ولقد كشفت الحفريات التى أجراها الأستاذان « زرة » و « هرتسفلد » على أن المدينة اشتملت على قصور وأسواق ومساجد وملاعب . كما كان بها أجزاء خاصة لسكن فرق الجيش التركى وموظفى الدولة والأهالى . ولقد زينت جدران قصور هذه المدينة بالصور الحائطية الملونه والزخارف الجصية . كما وجدت بها وسائل الرفاهية والحمامات والنافورات . ولم يتبق قائماً من هذه المشيدات، إلا جامع **سمراء** ومسجد أبو دلف ، وأساسات بعض القصور وبوابة قصر الجوسق التى تعرف باسم باب العامة .

عمارة المساجد :

لم يتبق من الجامع الكبير الذى شيده المنصور فى بغداد سوى محراب من المرمر مزخرف بنقوش ذات طراز أموى ، وقد استمر هذا الأسلوب بطبيعة الحال فى أوائل العهد العباسى الأول . أما مسجد الرقة الذى شيده المنصور فى عام ١٥٥ هـ — ٧٧٢ م فتدل الآثار القليلة التى بقيت منه على أن تخطيطه كان مستطيلا يتوسطه صحن ، كما أن عمارته جمعت بين العناصر الأموية القديمة وأساليب بلاد النهرين القديمة . ونلاحظ أن المزج بين الطوب اللبن والآجر الذى استخدم فى تشييد الجدران والعقود هو أسلوب عرف قبل ذلك فى كنائس النسطوريين فى الحيرة ، أما تعدد البوابات فهو أسلوب عراقى قديم .

ومن المساجد التى شيدت فى **سمراء** بعد أن صارت العاصمة . الجامع **سمراء** الذى شيده « المتوكل » ومسجد « أبو دلف » الذى شيد عام ٢٤٦ هـ — ٨٦٠ م فى شرق المدينة . ولم يتبق من آثار جامع **سمراء** الذى بدئ فى تشييده عام ٢٣٤ هـ ٨٤٨ م إلا السور الخارجى والمئذنة . (ش ١١٨) . ويتضح من الآثار المتبقية من

---

(١) انظر كتابنا فنون الشرق الأوسط القديم . ماقبله ص ٢٠٣ .

مبانيه أن الجامع أقيم على مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مكشوف تحيط به أروقة أكبرها رواق القبلة . ويعد هذا المسجد من أكبر المساجد الإسلامية ، إذ يبلغ طول أضلاعه ٢٦٠ م — ١٨٠ م، ويحيط به من الخارج سور من الطوب الآجر ارتفاعه عشرة أمتار وتدعمه أبراج نصف دائرية بارزة عن الجدران بحوالى مترين عددها أربعون برجاً . وكان الجزء المسقف يرتكز على دعائم مثمنة الأضلاع متصلة بأعمدة من الرخام فى الأركان . ويحتوى رواق القبلة على ٢٤ صفاً من الدعائم تكون ٢٥ بلاطة . ويوجد بالرواق الشرقى والغربى أربعة صفوف من الدعائم ، أما الجهة الشمالية فيوجد بها ثلاثة صفوف فقط . ويحف بمحراب الجامع زوجان من الأعمدة الرخامية المنتهية بتيجان رومانية . وتقع مئذنته الحلزونية (ش١٨ ب) خارج السور من الناحية الشمالية فى أولى الزيادات التى أضيفت للمسجد فى العهود التالية ،وتتميز هذه المئذنة بتصميم فريد لم يظهر من قبل فى عمارة المساجد الإسلامية حيث أقيمت على قاعدة مربعة ارتفاعها ثلاثة أمتار ، ويرتفع فوق هذه القاعدة برج حلزونى درجاته من الخارج . ويتشابه تصميم جامع أبى دلف ومئذنته الملوية مع جامع سمراء .

وبدراسة جامع سمراء نلاحظ ظهور تطور طرأ على عمارة المساجد فى العصر العباسى مع بقاء بعض الأساليب الأموية ، حيث استبدلت الأعمدة الحجرية التى استخدمت فى العصر الأموى بدعامات تحمل السقف مشيدة بالآجر ، وغالباً ما تزود هذه الدعائم بأعمدة متصلة بها من الجانبين . كما يلاحظ أن القبة قد استغنى عنها ، وأن المئذنة قد شيدت خارج المسجد . وتذكرنا هذه المئذنة الحلزونية بشكل الأبراج البابلية المدرجة « الزقورة »[1] التى وجدت قديماً فى العراق وربما استمدت فكرتها أيضاً من معابد النار الفارسية . أما الأساليب الأموية التى استمرت، فهى تخطيط الجامع على مساحة مستطيلة ، واتساع رواق القبلة الذى يتكون من ثلاث بلاطات ، وموازاة الدعائم التى تحمل السقف لجدار القبلة .

ويتكرر ظهور عناصر سمراء المعمارية فى مسجد أبى دلف وخاصة فى مئذنته

(١) تطلق كلمة « الزقورة » على المصاطب المدرجة التى تحمل المعابد فى بلاد النهرين والتى وجدت فى البلاد السومرية والبابلية .

كما تظهر فى مساجد الولايات التابعة للخلافة العباسية أساليب معمارية عراقية ، فنراها فى مصر فى جامع « ابن طولون » وفى إيران فى جامع نايين الذى شيده « البويهيون » .

عمارة القصور :

نشطت حركة العمارة المدنية نشاطاً كبيراً فى العصر العباسى الأول حيث اهتم الخلفاء بتشييد قصور لهم فى المدن التى أنشأوها . فبنى « المنصور » « القصر الذهبى » فى بغداد ، وشيد « الرشيد » قصراً له فى الرقة ما زالت بقاياه موجودة . وبنى المعتصم قصر « الجوسق » فى سمراء ، كما شيد « المتوكل » قصور « العروس » « والمختار » « والوحيد » ، والقصر « الجعفرى » فى الجعفرية . ولقد شيد لابنه « المعتز » قصر « بلكوارا » . وشيد « المعتمد » فى سمراء قصر « العاشق » كما أقيم قصر « أخيضر » على بعد أربعين كيلو متراً جنوبى غرب الكربلاء . وتتميز جميع هذه القصور بمتانة عمارتها وبوسائل الرفاهية المزودة بها ، كالحمامات والنافورات ، كما زخرف بعضها بالتصاوير الجدارية بالإضافة إلى كسوتها بالزخارف الجصية . ولقد وجدت بين هذه الزخارف الجدارية بلاطات خزفية ذات بريق معدنى .

شيد الخليفة « المعتصم » فى حوالى ٢٢١ هـ — ٨٣٦ م قصر « الجوسق الخاقانى » بمحاذاة نهر الدجلة ، ويصل المرء من مستوى النهر إلى مدخل القصر الذى يقع بالواجهة المطلة على النهر عن طريق به درجات . ويتكون المدخل من ثلاث بوابات لا تزال إحداها باقية حتى الآن تعرف باسم باب « العامة » ، ويتضح من عمارته أن الآجر قد استخدم فى تشييد القصر . وتعد المبانى التى كانت بهذا القصر أكبر مجموعة من المشيدات وجدت فى قصر واحد . وقد قام بالتنقيب عن هذا القصر الأستاذ « فيوليت » و « زره » و « هرتسفيلد » عام ١٩٠٧ م .

ويلى المدخل ثلاث قاعات تغطيها عقود نصف أسطوانية تعرف باسم الإيوان ، وتنتهى هذه القاعات بصحن مربع يتوسطه حوض ماء وفسقية . وتقع قاعات الخليفة الخاصة به وبالحريم على جانبى هذا الفناء ، كذلك تتصل به قاعة العرش الكبيرة

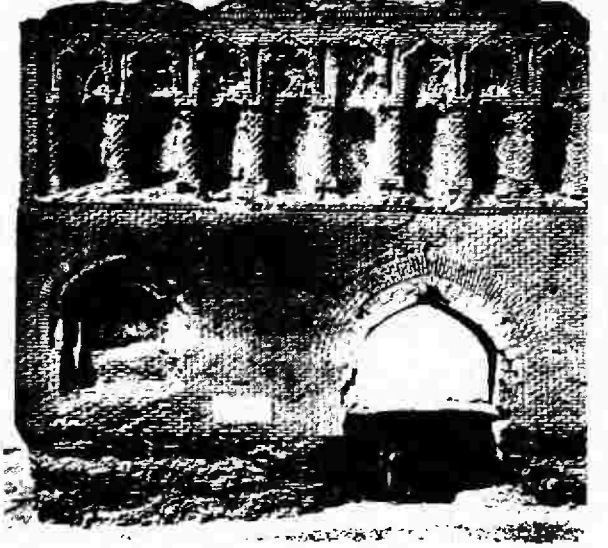

(شكل ١٧)

سور مدينة الرقة (بوابة بغداد)
العصر العباسى فى العراق .

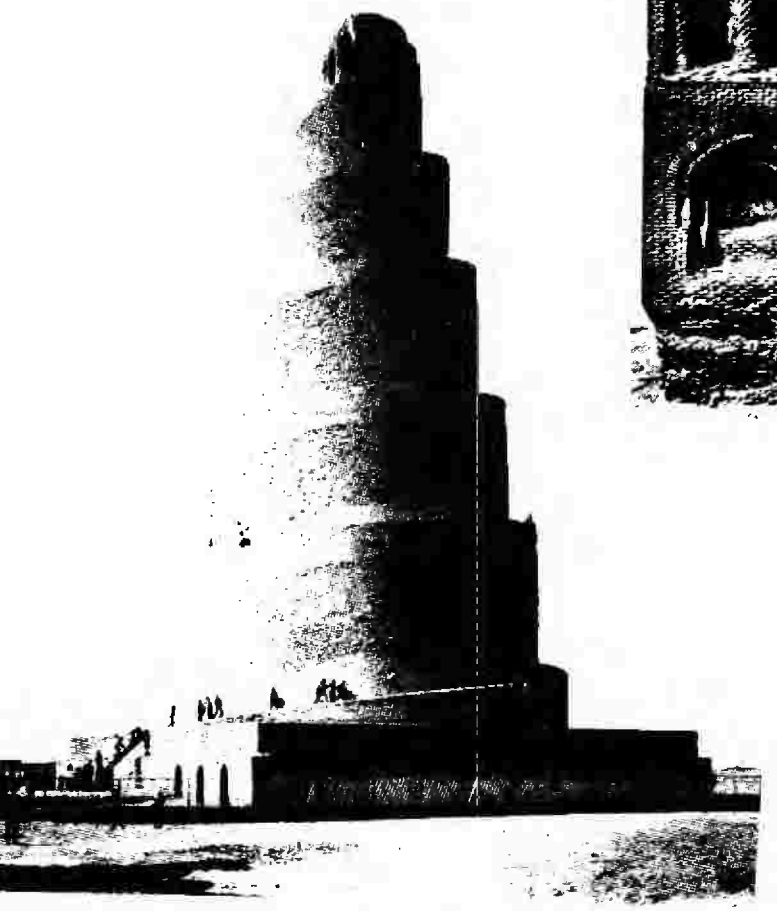

(شكل ١٨ – ا – ب)

(ا) جامع السمراء الكبير الذى شيده المتوكل عام ٢٣٤ هـ — ٨٤٨ م ، العراق ، وتظهر فى (ب) المئذنة (الملوية) ، خارج السور .

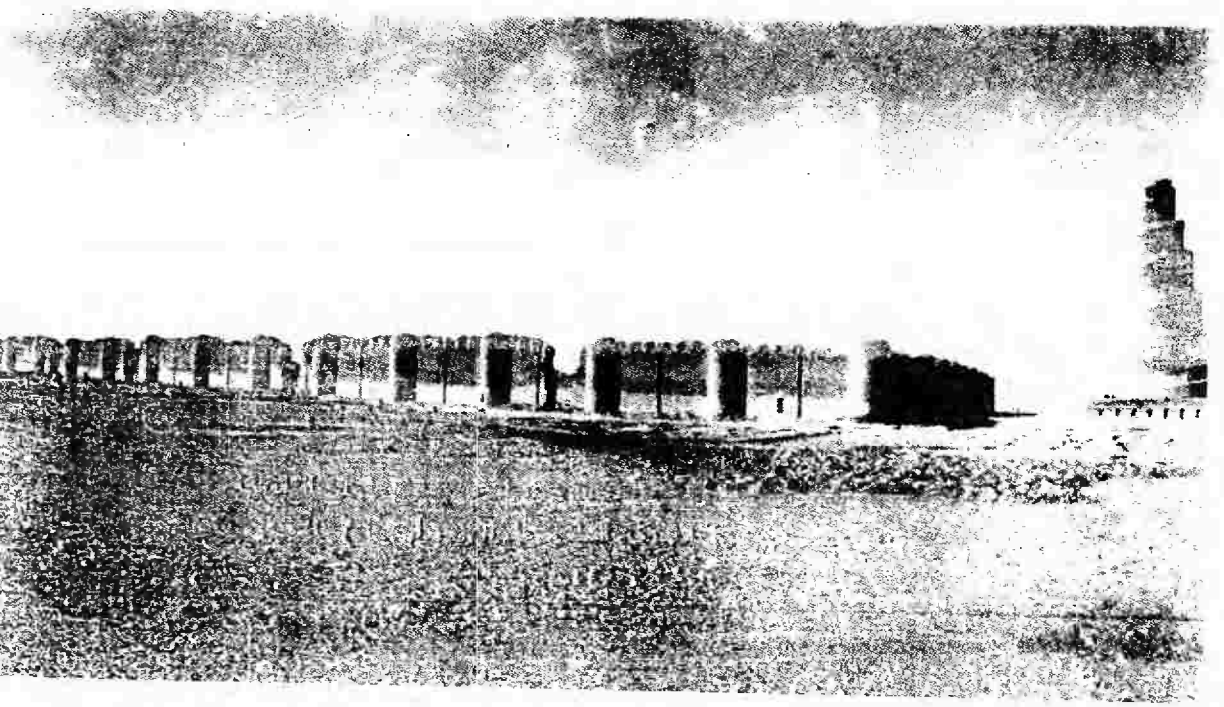

(شكل ١٩)

قصر الأخيضر بصحراء العبيد جنوب بغداد ، القاعة الكبيرة من الجهة الشمالية ، العراق .

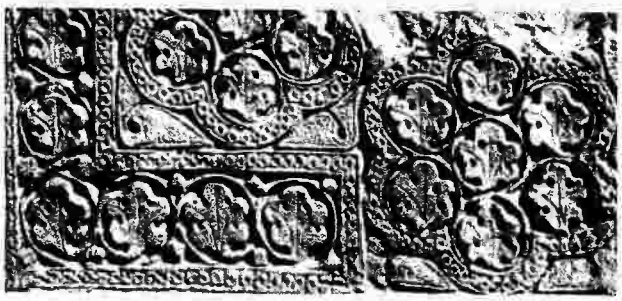

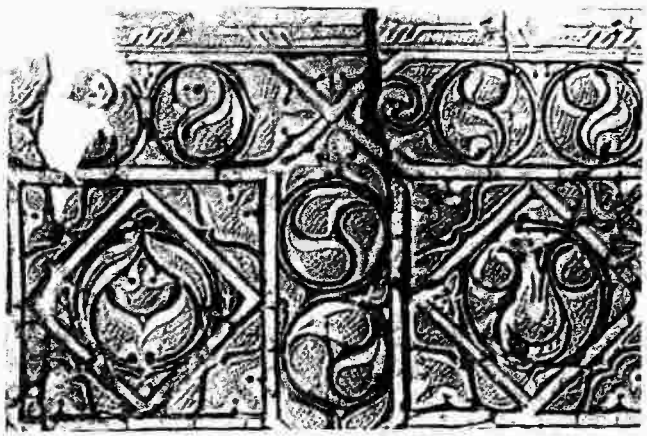

(شكل ٢٠ – ا ، ب)

زخارف جصية طراز السمراء ا (أعلى) طراز السمراء ب (أسفل) وجدت بقصور السمراء ، العراق .

المربعة الشكل ، ويغطى هذه القاعة قبة كما تحيط بها قاعات جانبية . ويكسو الجزء الأسفل من جدران القاعات وزرة من الجص منقوشة بوحدات زخرفية . أما فى قاعة العرش فقد استبدلت الزخارف الجصية بلوحات من الرخام منقوشة بزخارف ذات وحدات مشابهة . ولقد وجدت ببعض قاعاته تصاوير جدارية ملونة تغطى الجدران .

ويلاحظ من دراسة هذا القصر أنه جمع بين العناصر المعمارية التى عرفت فى مشيدات إيران والعراق فى فترة الحكم الساسانى ، كالإيوان الكبير ، والأفنية المكشوفة التى تتوسطها النافورات ، والبهو الكبير المغطى بعقود نصف دائرية . ومن المرجح أن تصميم هذا القصر كان على نمط طراز القصور الساسانية التى وجدت بالمدائن ، والتى كان يلحق بها ميدان للعبة الصولجان (البولو) . وكانت هذه اللعبة معروفة فى بلاد الفرس ونقلها عنهم العباسيون ضمن ما اقتبسوا منهم .

ومما يؤكد استعانة المعتصم بعمال من أنحاء الإمبراطورية عثور الأستاذ « هرتسفلد » على توقيعات هؤلاء العمال باللغات العربية والآرامية (السورية) والإغريقية [١] .

ويقع قصر أخيضر فى صحراء العبيّد على نهر الفرات ، ويبعد حوالى ٨٠ كيلومتراً عن الكوفة . ولقد اختلف العلماء فى شخصية صاحب هذا القصر[٢] ، فنسبه البعض إلى عيسى بن موسى بن عبد الله العباسى الذى كان حاكماً على الكوفة فى عهد المنصور ، وفى هذه الحالة يرجع تاريخ تشييده إلى عام ١٦١ هـ — ٧٧٨ م . كما ذكر أنه كان مقراً للقرامطة فى القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى . ويعد هذا القصر من أهم العمائر المدنية العباسية ، حيث إنه القصر الوحيد الذى عثر عليه بحالة جيدة من بين قصور العباسيين ويرجع ذلك إلى استخدام قطع الحجارة فى تشييده (ش ١٩) .

---

(١) كريزويل . مقابله ص ٢٦٦ .

(٢) استبعد العلماء نسبة هذا القصر إلى الخلفاء العباسيين لوجوده فى الصحراء حيث إنهم لم يفضلوا سكن الصحراء مثل الخلفاء الأمويين .

ولقد أقيم هذا القصر على مساحة مستطيلة (١٧٥ × ١٦٩ م) ويعتمد تصميم مبانيه على الحرف الإفرنجى T . ويحيط به سور متين مدعم بأبراج أسطوانية بارزة عن الجدران، كما يظهر أيضاً بأركانه الأربعة أبراج . ويوجد للقصر أربع بوابات تتوسط الجدران ، ولكن الدخول إليه قُصر على مدخل واحد . ويلى مدخل القصر ردهة تذكرنا بشبيهتها فى قصر المشتى الأموى ، كما تذكرنا به أيضاً حنية المسجد الموجودة على يمين المدخل . وتظهر بهذا القصر الأساليب المعمارية المعروفة فى عصور الساسانيين كبهو الاحتفالات ، وقاعة الاستقبال والفناء المكشوف الذى تقع عليه مبانى الحريم ومبانى القصر . وخلافاً لما اتبع فى قصر الجوسق، نلاحظ أن عمارة هذا القصر قد استخدمت فيها قطع الحجارة المخلوطة بالمونة مما ساعد على بقائه

وقد استخدم الآجر فى حالتين ، فى تغطية العقود ، أو للحصول على تأثير زخرفى فى العقود المستديرة والمدببة الصماء الموجودة فى الجدران . وتغطى سطح القبوات أيضاً زخارف جصية جميلة .

ويبدو من تخطيط القصور العباسية فى العراق ، اقتباس المعماريين لكثير من العناصر الهندسية التى عرفت فى القصور الفارسية . كما يظهر الأسلوب العراق القديم فى استخدام الآجر فى تشييد بعض هذه القصور .

الزخارف المعمارية :

النحت على الحجر :

انتشرت طريقة كسوة الجدران بزخارف جصية بعد انتشار استخدام قوالب الطوب فى العمائر ، ويظهر ذلك فى قصور مدينة سمراء وبعض المنازل . وكان الجزء الأسفل يغطى بوزرة من الجص ارتفاعها حوالى ١٠٠ سم ، ولقد وجدت هذه الزخارف فى قصرى الجوسق وبلكوارا . ويمكن تقسيم زخارف قصور سمراء من حيث الوحدات الزخرفية إلى ثلاث مجموعات يتضح فيها التطور التدريجى الذى ظهر فى أسلوب الزخرفة : المجموعة الأولى وهى التى ظهرت فى زخارف مبانى الفترة الأولى ، وتتكون عناصرها من تفريعات لأوراق العنب المخمس الشكل ، وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية وأشجار الزهيرات . ولقد وضعت هذه الزخارف فى تقسيمات هندسية . وتظهر فى هذه الزخارف عناصر أموية كثيرة

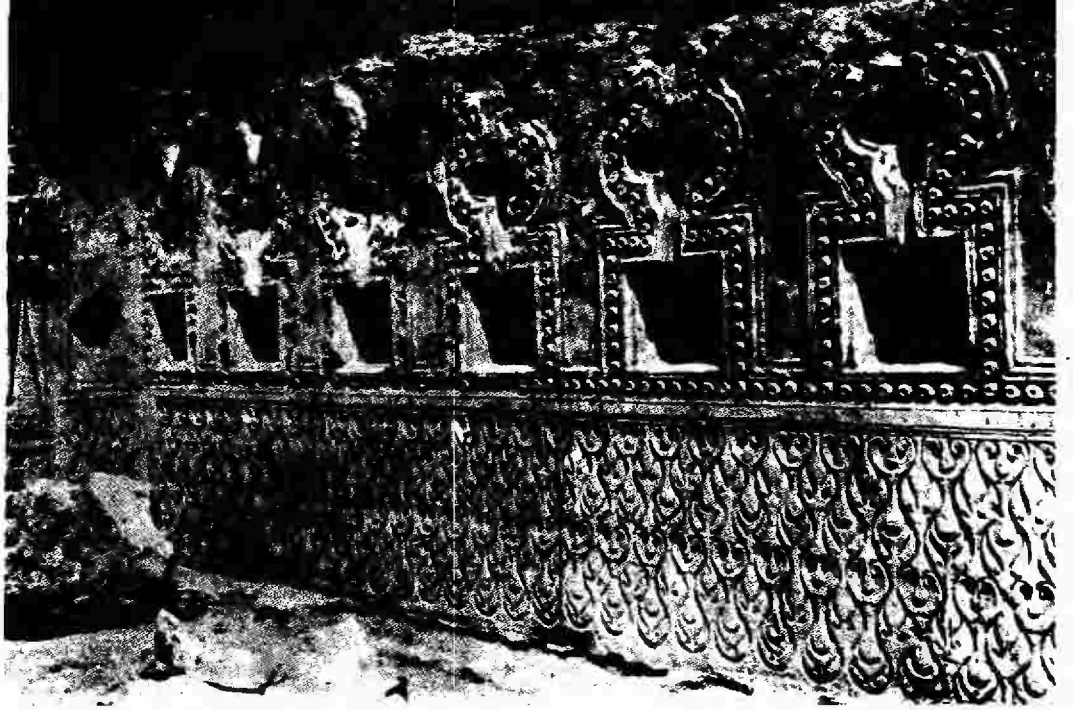

(شكل ٢٠ – ج)

زخارف جصية طراز السمراء وجدت
في قصر بلكوارا ، السمراء ، العراق .

(شكل ٢١)

باب جامع الخاصكي ببغداد ،
صر العباسي ، القرن ٢ هـ – ٨ م ،
ليا بمتحف بغداد .

(شكل ٢٢)

تاجا عمودين من الحجر (ا) العصر
العباسي المبكر ، زخارفه منقولة عن
الطبيعة ، (ب) الطراز التجريدي
المتطور ، حالياً بمتحف المتروبوليتان
بنيويورك .

(شكل ٢٣)

لوح من الخشب من تكريت ، العراق نهاية القرن ٢ هـ – ٨ م ، حالياً بمتحف بغداد .

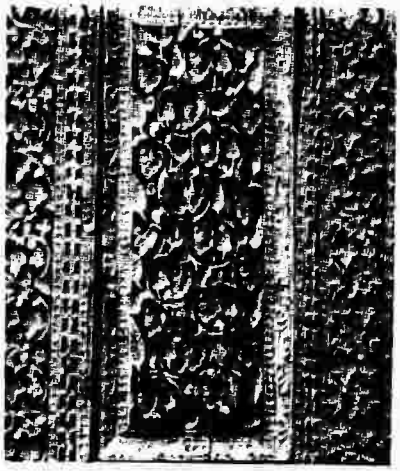

(شكل ٢٤)

باب من الخشب ، يعتقد أنه من سـامراء ، العراق ، القرن ٣ هـ – ٩ م حالياً بمتحف المتر وبوليتان بنيويورك ، فى مجموعة « فلتشر » تفضلا من المتحف

(شكل ٢٥)

تصوير جدارى لراقصتين وجد على جدران الحريم بقصر الجوسق . سـامراء ، القرن ٣ هـ ، ٩ م حالياً بمتحف الفنون التركية والإسلامية ، إسطنبول .

تشابه زخارف قصر المشتى ، ويسمى هذا الأسلوب القريب من الطبيعة بطراز « سمراء الأول » (ش ١٢٠) . وتتميز زخارف المجموعة الثانية ببعد عناصرها عن محاكاة الطبيعة ، وتتكون من أوراق نباتية دائرية وأشكال مختلفة من المراوح النخيلية . ويظهر فى هذه الزخارف تغيير فى شكل الوحدات قليلة البروز ، حيث استخدم فيها النحت المائل بحيث تتقابل حوافها بعضها ببعض فى شكل زوايا منفرجة (ش ٢٠ ب) .

أما زخارف المرحلة الثالثة طراز « سمراء الثالث » فيظهر بها تطور أكثر حيث تتحول الوحدات كلها إلى الشكل التجريدى كما نجد بالأرضية عمقاً ظاهراً . ومن أحسن الأمثلة على ذلك نقرش قصر بلكوارا (شكل ٢٠ حـ) .

وبينما تظهر أحياناً بين زخارف الفترة الثانية المحورة عناصر طبيعية ، نجد أنها تختفى تماماً فى زخارف الفترة الثالثة . ويعد هذا التغيير الأخير ثورة فى أسلوب الزخارف الذى كان متبعاً حتى ذلك الوقت فى الفن الإسلامى ، ويمكن اعتبار هذه المرحلة ابتكاراً زخرفياً خاصاً بالعهد العباسى . ويظهر التغيير أيضاً فى أسلوب حفر الزخارف فبدلا من الحفر باليد بالسكين ، اتبع أسلوب صب الجص فى القوالب المزخرفة ثم ضغطها على الحائط ، ويسهل هذا عملية تكرار الوحدات على السطح مما يعجل بإنجاز مهمة العامل . ويظهر فى أسلوب هذه المرحلة فكرة تغطية السطح تغطية تامة كادت تخفى أرضيته تماماً ، ويعد ذلك قمة نضوج الأسلوب الزخرفى الذى ظهر لأول مرة فى الفن الإسلامى ، وانتشر بعد ذلك فى العالم الإسلامى وكان من أهم دعائم الفن الإسلامى . ولقد كان لأسلوب زخارف سمراء الجصية ، أثر كبير فى زخارف العهود الإسلامية التالية ، حيث شاع استخدامها فى العراق وإيران فى العصر السلجوقى . ويمكن نسبة فكرة استخدام الجص فى الزخارف المعمارية إلى الساسانيين الذين زخرفوا قصورهم بزخارف جصية بارزة . كما أن التفريعات النباتية ذات الأوراق الكبيرة يمكن نسبتها إلى الأتراك الرحل الذين هاجروا إلى المنطقة .

استمر تأثير الفن الأموى ظاهراً فى بعض البلاد الإسلامية بعد سقوط الدولة الأموية ، ويظهر ذلك فى نحت الأحجار ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك محراب جامع الخاصكى الموجود حالياً بمتحف بغداد (ش ٢١) ويرجح بعض العلماء أن الخليفة العباسى المنصور قد نقله من سوريا إلى جامعه الذى شيده فى بغداد فى أوائل العصر العباسى .

ولقد نحت هذا المحراب من كتلة من الرخام ، ويزخرف أعلاه نقش على هيئة محارة مجوفة تستند على شريط رأسى به زخارف قوامها أوراق العنب وحباته وورق الأكنتس وقرون الرخاء . كما يوجد به زخرفة على هيئة زهرية . ويوجد على جانبى المحراب نقش لعمودين مزخرفين بخطوط حلزونية يعلوهما تاجان من نبات الأكنتس . وتتشابه وحدات هذا المحراب مع وحدات قصر المشتى مما يرجح أن صناعته ترجع إلى القرن الأول الهجرى (القرن السابع الميلادى) ، كما يتضح من تصميمه تأثر الفن الإسلامى فى صدر الإسلام بالأساليب الفنية القديمة ، وذلك بمقارنته مع رسم محراب (ش د) وجد بمعبد يهودى بمدينة تدمر يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث الميلادى .

ويظهر أسلوب تطور زخارف سمراء الجصية فى الزخارف المنقوشة على الحجر أيضاً ويتضح ذلك من مقارنة بعض تيجان أعمدة رخامية عثر عليها فى مدينة الرقة . حيث نلاحظ فى إحداها (ش ٢٢ ا) الأسلوب الأموى الذى يعتمد على تقليد الطبيعة والذى ظهر فى أوائل العصر العباسى . فى حين ظهر فى الثانى (ش ٢٢ ب) زخارف عناصر نباتية تجريدية متعددة بطريقة النحت المائل أو المشطوف . وهذا أسلوب انتقل إلى العراق عن طريق الإيرانيين أو الترك الرحل الذين استوطنوا الدولة العباسية .

النحت على الخشب :

من أحسن أمثلة النحت على الخشب فى العصر العباسى الأول قبل ظهور العنصر التركى ، قطعة خشبية عثر عليها فى مدينة تكريت الواقعة شمال العراق (ش ٢٣) يرجح العلماء أنها كانت جزءاً من منبر أو باب . وتتألف زخارفها من

(شكل ٢٦)
تصوير لحامل الغزال وجد على أوانى
قصر الجوسق بمدينة سمراء ، العراق ،
القرن ٣ – ٩ م .

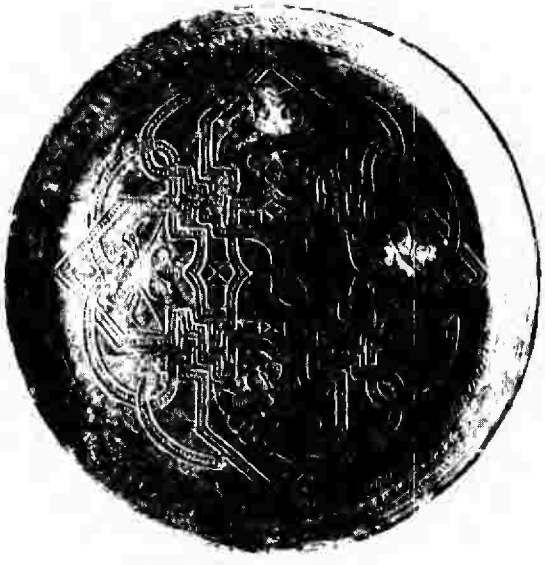

(شكل ٢٨)

إناء من الخزف به زخارف بارزة
ومغطى بطلاء ذهبى ، العراق ، القرن
٣ هـ – ٩ م ، العراق . وهو حالياً
بمتحف فرير بواشنطن . تفضلا من
المتحف .

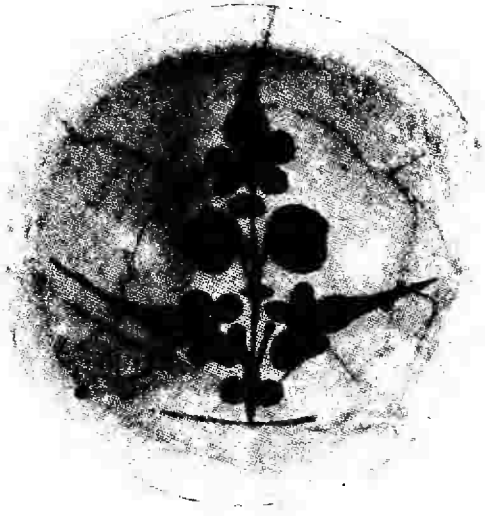

(شكل ٢٧)

سلطانية من الخزف بها زخارف
نباتية ، العراق ، القرن ٣ هـ – ٩ م .
معهد الفنون بمدينة شيكاغو .

(شكل ٢٩)

إناء من الخزف مزخرف بطلاء معدنى ذى لؤلؤ ، العراق ، القرن ٣ هـ – ٩ م ، معهد الفنون بمدينة شيكاغو .

(شكل ٣٠)

إناء من الخزف مزخرف بطلاء معدنى وبه زخارف حيوانية ، العراق ، القرن ٣ هـ – ٩ م متحف اللوفر باريس .

(شكل ٣١)

إناء من الخزف مزخرف بالبريق المعدنى وبه زخارف آدمية ، العراق ، القرن ٣ هـ – ٩ م ، بمتحف أشموليان ، أكسفورد .

نبات العنب وعناقيده وكيزان الصنوبر التى شاع استخدامها فى العصر الأموى

ويظهر أسلوب سمراء التجريدى فى زخارف بعض الألواح الخشبية (ش ٢٤) التى تظهر بها رسوم لزهيرات مجردة أو لطيور أو حيوانات محورة عن الطبيعة، ويظهر فى هذه الألواح الأسلوب الزخرفى الجديد الذى أدخله العنصر التركى فى الفن العباسى فى أواخر القرن الثامن الميلادى وهو طريقة الحفر المائل أو المشطوف .

التصوير الجدارى :

زخرف الخلفاء العباسيون قصورهم بالتصاوير الجدارية كما كان متبعاً فى زخرفة القصور الساسانية . ولقد عثر على نماذج من هذه الصور الحائطية فى قصر الجوسق . وكانت هذه الرسوم الحائطية تغطى الجزء الأعلى من جدران قاعات القصر ، ومن أحسنها ما وجد فى جناح الحريم . وتضم هذه الرسوم صور راقصات وموسيقيات وصائدات وحيوانات وطيور ، ولقد وضعت بعض هذه الوحدات الحية داخل مناطق مستديرة أو مربعة يحيط بها إطار مزخرف بنقط تشبه حبات اللؤلؤ أو أشكال القلوب . كما ظهرت بعض الصور فى دائرة تكونت من تفريعات نبات الأكانتاس الذى استخدم فى زخارف قبة الصخرة .

ويبدو التأثير الفارسى واضحاً فى تصاوير سمراء حيث يظهر أسلوب جديد فى فن التصوير يختلف عن الأسلوب الهيلينستى الذى عولجت به صور قصير عمره ، حيث اعتمد الفنان العباسى على تحديد عناصره بلون قاتم يملأ بعدها المساحات بالألوان . وتظهر نساء قصر سمراء (ش ٢٥) بوجوه مستديرة ممتلئة وبعيون لوزية ذات حدقات كبيرة ، وأنف كبير مستقيم ، أما الفم فيحده خط مستقيم من أعلى وخط منحن من أسفل . وتتميز النساء بشعر أسود غزير ينسدل على الكتف على هيئة ضفيرتين . ويبدو أن هذا الأسلوب مشتق من أمثلة وجدت فى أواسط آسيا ونقلها الأتراك إلى العراق . ويؤكد التأثير التركى صورة حامل الغزال الذى يرتدى زياً تركياً (ش ٢٦)

أما التصوير الذى يزين المخطوطات والكتب التاريخية الذى ذكر المؤرخون وجوده فى العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجرى أى التاسع الميلادى ، فلم يعثر

منه حتى الآن على أى نماذج . وأقدم ما عثر عليه من العراق لا يرجع إلا إلى ما بعد القرن الثالث عشر الميلادى فى فترة حكم أتابكة السلاجقة .

الفنون الصغيرة :

الخزف :

توصل الخزافون المسلمون فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (التاسع والعاشر بعد الميلاد) إلى اكتشاف أساليب جديدة فى صناعة الخزف وزخرفته . وكان ذلك إما بطريقة الحز التى تذكرنا بالحفر على المعادن أو بالضغط على العجينة لتكوين بعض الزخارف البارزة . كذلك استخدمت طريقة رسم الزخارف تحت الطلاء بلون واحد أو بألوان متعددة . ومما ساعد على نشاط الخزافين ، ما استورده الخلفاء العباسيون من الخزف الصينى ذى التعريقات والبقع الملونة الذى كان يصنع فى الصين فى عهد أسرة تانج (٦١٨ — ٩٠٨ م) . ولقد أجاد المسلمون تقليد هذا النوع من الخزف لدرجة يصعب أحياناً التمييز لأول وهلة بين ما صنع فى البلاد الإسلامية وما استورد إليها . ولقد عثر على آثار من ذلك النوع فى سمراء والمدائن ونيشابور .

ومن الأمثلة الأولى التى تأثرت بالخزف الصينى مجموعة من الأوانى تزينها زخارف هندسية أو نباتية على الأرضية البيضاء . ومن هذه المجموعة سلطانية عثر عليها فى العراق مغطاة بطلاء شفاف رصاصى تزينها زخارف باللون الأزرق لأشكال نباتية (ش ٢٧) . ولقد عثر فى سمراء على كمية كبيرة من هذا النوع من الخزف ، كما انتشر فى مراكز صناعة الخزف الأخرى ووجدت منه أمثلة فى إيران والفسطاط .

وينسب إلى أوائل العصر العباسى مجموعة من الأوانى الخزفية زخرفت بطريقة الخطوط المحفورة أو الزخارف البارزة . وقوام هذه الزخارف أشكال هندسية ونباتية طبيعية ومجردة بعيدة عن الطبيعة ، وقد تنتهى هذه الزخارف الهندسية بتفريعات من المراوح النخلية أو كتابات زخرفية (ش ٢٨) تتشابه مع ما وجد فى الخزف الصينى . ويغطى الإناء أحياناً بطلاء أصفر يشبه لمعان الأوانى المعدنية .

وكان الابتكار العظيم الذى اهتدى إليه الخزافون المسلمون فى العراق هو إكساب الإناء الخزفى بريقاً معدنياً يختلف لونه من الأحمر النحاسى والأصفر

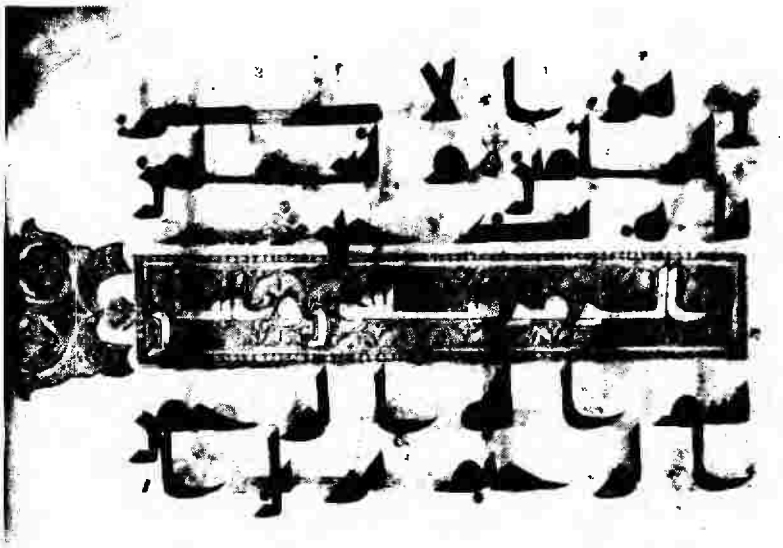

(شكل ٣٢)

صفحة من مصحف مكتوبة بالخط الكوفي ، العراق ٣ هـ – ٩ م ، حالياً متحف المتروبوليتان ، نيويورك .

(شكل ٣٣)

قعة نسيج من الحرير من صناعة غداد ، القرن ١٠ – ١١ م ، حالياً ، كنيسة بمدينة ليون بأسبانيا .

(شكل ٣٤)

جامع سيدى عقبة ، القيروان بتونس
شمال أفريقيا ، القرن ٣ هـ – ٩ م .

(شكل ٣٥)

مئذنة جامع سيدى عقبة ، القيروان
بتونس .

(شكل ٣٦)

حشوة خشبية من منبر جامع القيروان
بتونس .

الضارب إلى الخضرة . وكان هذا البريق المعدنى يكسب السطح لمعاناً معدنياً يشابه لمعان الأوانى المعدنية ، وبذلك تمكنوا من الاستغناء عن الأوانى الذهبية والفضية التى كان الفقهاء المسلمون يستنكرون على الحكام استعمالها لدلالتها على الترف والإسراف [1] . ولم يكن هذا النوع من الخزف معروفاً من قبل فى البلاد الإسلامية .

ولقد اقتصرت الزخرفة بالبريق المعدنى على المنتجات الثمينة من الخزف التى تصنع للعظماء وكبار رجال الحكم . ويتطلب صناعة هذا النوع من الخزف إحراق الإناء أول مرة بعد تجفيفه وطلائه بالدهان أو الميناء ، ثم ترسم بعد ذلك الزخارف فوق الدهان بأكاسيد بعض المعادن . وتحرق بعد ذلك فى فرن ذى حرارة منخفضة ، فيظهر بها بعد حرقها للمرة الثانية بريق معدنى ذهبى اللون .

ولقد انتشر هذا الابتكار الفنى فى أنحاء العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، حيث عثر على نماذج من هذا الخزف المعدنى فى العراق وإيران ومصر وشمال أفريقيا والأندلس وبلاد الشام . واختلف العلماء فى القطر الذى ابتكر هذا الأسلوب ، ويميل كثير من العلماء فى الوقت الحاضر إلى نسبة هذا الابتكار الإسلامى إلى العراق . ويعتقدون أن مراكز صناعته اقتصرت فى أوائل العصر العباسى على بغداد وسمراء ، وأن النماذج التى ظهرت من هذا النوع فى بقية البلاد الإسلامية ترجع إلى فترة بعد ذلك .

وإلى جانب ابتكار البريق المعدنى اكتشف الخزافون أساليب جديدة فى طريقة الزخرفة بالبريق المعدنى . وذلك برسم العناصر الزخرفية بألوان متعددة من الطلاء المعدنى الأصفر والزيتونى والبنى المحمر على الأرضية البيضاء المغطاة بالطلاء الشفاف . ويظهر ذلك فى إناء به زخارف بالطلاء المعدنى المتعدد الألوان (ش ٢٩) . ولقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً فى البلاطات الخزفية التى تكسو الجدران ووجد منها أمثلة فى بعض قصور السمراء وفى محراب جامع القيروان . ولم تقتصر زخارف الخزف المعدنى فى العراق على رسوم سمراء التجريدية والنباتية ، بل ظهرت به زخارف حيوانية وآدمية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى (ش ٣٠) ، كما اقتصرت ألوان الطلاء المعدنى على لون واحد .

---

(١) تحريم استخدام الأوانى الذهبية والفضية فى الشرب ، انظر صحيح البخارى « باب التحريم

ولقد انتقلت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى من العراق إلى إيران فى العصر العباسى الأول وظهرت نماذج منه فى مدينتى سوسة والرى . ويعد الخزف ذو البريق المعدنى أقدم أنواع الخزف الإسلامى الذى ظهرت به زخارف آدمية وحيوانية . ويتضح من الزخارف الموجودة على طبق مزخرف بالبريق المعدنى بلون واحد (ش ٣١) تأثر الفنان بالوحدات الساسانية .

فنون الكتاب :

الخط والتذهيب والتصوير والتجليد :

انتعش فن صناعة الكتاب فى العصور الإسلامية ، وكان الباعث على ذلك رغبة الحكام المسلمين فى عمل مصاحف جميلة لهم ، فاستعانوا بأحسن الخطاطين لكتابتها وأمهر المذهبين لزخرفتها . كما وضحت بعض المخطوطات الشهيرة بالصور والرسوم الملونة . وكان نتيجة نهضة فن الكتاب أن تطورت صناعة التجليد عند المسلمين وظهر لها شكل مميز منذ القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) .

وكان الخط العربى يكتب بأسلوبين : الأسلوب الأول وهو الخط الكوفى نسبة إلى مدينة الكوفة بالعراق ، ويتميز بحروف مستقيمة ذات زوايا حادة . والأسلوب الثانى وهو الخط النسخى وحروفه لينة مقوسة . ولقد استخدم المسلمون هذين النوعين فى كتاباتهم منذ القرن السابع الميلادى ، واستخدم الخط الكوفى فى كتابة القرآن حتى القرن الحادى عشر الميلادى ثم حل محله تدريجياً الخط النسخى .

وتنسب بداية فن زخرفة المصاحف وتحلية صفحاتها باللون الذهبى إلى العصر العباسى . وكانت الصفحات الأولى والأخيرة وعناوين الصور القرآنية تذهب بزخارف جميلة ، كما تظهر الزخارف أحياناً فى علامات الهامش والنصوص الكتابية (ش ٣٢) . وتدل زخارف المصاحف التى ترجع إلى القرن التاسع الميلادى فى العصر العباسى ، على أن عناصرها ما زالت متأثرة بأساليب من الفن الساسانى كالمراوح النخيلية المجنحة . كما يعتقد أن الحكام العباسيين استعانوا بفنانين من مسيحيى سوريا فى عملية تذهيب الكتابة . وكانت صفحات الكتاب تحفظ فى أول الأمر بين لوحين من الخشب المزين بزخارف هندسية مطعمة بالعاج ثم استبدل بعد ذلك بالجلد .

المنسوجات :

نشطت دور النسيج فى أنحاء الدولة العباسية ، فى إنتاج أفخر المنسوجات التى يطلبها الخلفاء . فأمدت مصر الدولة العباسية بالمنسوجات الكتانية المزخرفة بالخيوط الحريرية ، بينما اختصت إيران بأفخر المنسوجات الحريرية . ويتضح تأثير الفن الساسانى على فنان تلك الفترة من قطعة نسيج حريرية من صناعة بغداد مزخرفة بعناصر حيوانية (ش ٣٣) .

شمال أفريقيا :

امتد تأثير الفن العباسى إلى خارج حدود العراق ويظهر ذلك فى شمال أفريقيا وفى مصر وإيران . فنجد أن الأسلوب العباسى انتقل إلى شمال أفريقيا فى فترة حكم الأغالبة الذين يقيمون فى قيروان وتونس . ويظهر ذلك فى جامع القيروان (ش ٣٤) الذى أعيد تشييده فى عهد « زياد الله » ثالث الحكام الأغالبة (٢٢١ هـ ٨٣٦ م) . ويتميز هذا الجامع بمئذنة على هيئة برج قاعدته مربعة شيدت فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك عندما أمر بتوسيع المسجد عام ١٠٥ هـ — ٧٢٣ م[١] ، وتعد هذه المئذنة (ش ٣٥) أقدم المآذن فى تاريخ العمارة الإسلامية . ولقد انتشر هذا النوع من المآذن المربعة التى عرفت باسم الصومعة فى مساجد بلاد المغرب والعراق ،

ومما يؤيد انتقال العناصر العباسية إلى شمال أفريقيا ، القصر الذى شيده إبراهيم ابن الأغلب عام ١٨٥ هـ — ٨٠١ م على النمط العباسى فى عاصمته الجديدة التى أطلق عليها اسم العباسية .

كذلك ظهرت فى العصر العباسى الأولى فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى مبان محصنة فى شمال أفريقيا على طول الساحل كانت تستخدم كتحصينات ضد هجوم الأعداء . ومن أشهر هذه المبانى رباط صوصه الذى شيده « إبراهيم ابن الأغلب » بمدينة صوصة فى تونس عام ٢٠٦ هـ — ٨٢١ م، وكان يلحق بهذا المبنى منارة اسطوانية تستخدم كمئذنة ولإرسال الإشارات . ولقد استخدمت هذه

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٥ . لدراسة هذه المئذنة انظر أيضاً . أحمد فكرى المسجد الجامع بالقيروان ، زكى محمد حسن تطور المآذن

المبانى فيما بعد لإيواء الجنود المسلمين ، ثم نشأت بها حركة المرابطين فى المغرب .

ولقد ظهر تأثير الفن العباسى فى شمال أفريقيا فى الفنون التطبيقية أيضاً ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك منبر جامع القيروان الذى يعد أول منبر عرف فى الإسلام .

يتكون هذا المنبر من صفوف من المستطيلات الخشبية التى تزينها حشوات خشبية مفرغة ، وتتألف زخارف هذه الحشوات من تفريعات ورق العنب وزخارف نباتية مجردة . كما توجد به زخارف هندسية متشابكة (ش٣٦) . وتوضح زخارف هذا المنبر التطور الذى مرت به عناصر الفن الإسلامى من العصر الأموى إلى العصر العباسى . حيث تظهر به زخارف أموية ككيزان الصنوبر وتفريعات العنب وأوراقه التى عرفت فى قصر المشتى ، كما توجد به زخارف نباتية بعيدة عن الطبيعة تمثل أسلوب الزخارف المجردة التى ابتكرت فى العصر العباسى ، والتى ظهرت نماذج منها فى زخارف السمراء الجصية فى المرحلتين الثانية والثالثة .

وقد امتد طراز العصر العباسى الأول إلى شرق تركيا ، ويظهر هذا التأثير فى نقوش حجرية وجدت فى كنيسة الصليب المقدس التى شيدها الملك الأرمنى « جاجيك » فى الفترة ٩١٥ — ٩٢١ م بالقرب من بحيرة فان . فنجد بين الزخارف المنقوشة شخصاً جالساً بوضع المواجهة بين حارسين (ش ٣٧) ويعتقد بعض الباحثين أن هذا الشخص ربما يرمز إلى الخليفة « المقتدر » الذى يظهر شكله منقوشاً فى وضع جالس على عملة ذهبية (ش ٣٨) ترجع إلى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . وهنا نلاحظ بدء ظهور الزخارف الآدمية على العملات فى العصر العباسى .

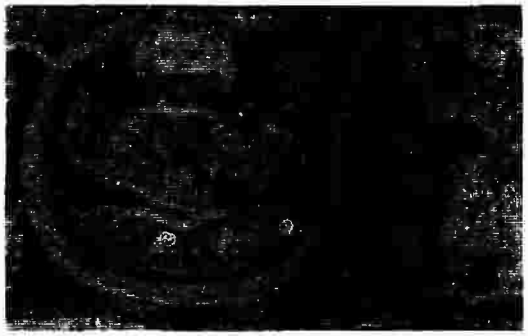

(شكل ٣٧) نحت بازو وجد على كنيسة بالقرب من بحيرة فان بأرمينيا ، القرن ٤ هـ — ١٠ م

(شكل ٣٨) عملة ذهبية بها صورة الخليفة المقتدر ، العصر العباسى بمتحف الدولة ببرلين

الفصل الثانى

الولايات المحلية خارج العراق

مصر

الطولونيون (٢٥٤هـ - ٨٦٨م) (٢٩٣هـ - ٩٠٥م)

علمنا مما سبق أن بعض البلاد التابعة للدولة العباسية استقل ولاتها بها إثر ضعف الخلافة العباسية . ولكن بالرغم من استقلال هذه الدول (الطولونية، السمانية، البويهية ، الغزنوية) سياسياً عن الخلافة العباسية ، يلاحظ أن الطراز العباسى ظل سائداً فى هذه الممالك بالإضافة إلى طرزهم المحلية . ولقد انتقل الطراز العباسى إلى مصر على يد أحمد بن طولون .

ولدأحمد بن طولون فى بغداد ونشأ فى مدينة سمراء ، وجاء إلى مصرعام ٢٥٤ هـ ٨٦٨ م فى عهد المعتمد ــ آخر الخلفاء العباسيين الذين أقاموا بسمراء ــ كوال من قبل الخليفة . ولكنه انتهز فرصة ضعف الخلافة العباسية فاستقل بحكم مصر له ولذريته بعد ذلك ، وامتد نفوذه إلى الشام فى عام ٢٦٥ هـ ــ ٨٧٧ م . واستمر حكم الدولة الطولونية حتى عام ٢٩٣ هـ ــ ٩٠٥ م حين تمكن الإخشيديون من الاستيلاء على الحكم[١] . وبرغم استقلال أحمد بن طولون السياسى إلا أنه كان يدين بالطاعة الدينية للخليفة العباسى .

العمارة :

شيد أحمد بن طولون ضاحية جديدة لجنوده بجوار مدينة الفسطاط فى عام ٢٥٦ هـ ــ ٨٧٠ م أسماها القطائع وشيد بها قصراً وميداناً للعبة الصولجان[٢] التى نقل فكرتها عن العباسيين ، كما أقام لجنوده مساكن بها . ولما ضاق جامع عمرو بالمسلمين الذين دخلوا فى الدين الجديد شيد أحمد بن طولون جامعاً جديداً فى الفترة (٢٦٣ ــ ٢٦٥ هـ) (٨٧٦ ــ ٨٧٩ م) يعتبر من أجمل المساجد الإسلامية .

---

(١) تمكن محمد بن طغج الأخشيدى من تأسيس دولة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية استمر حكمها فى الفترة (٩٣٥ - ٩٦٩م) (٣٢٣ - ٣٥٨هـ) مع استمرار ولائها الدينى للدولة العباسية .

(٢) المقريزى ، كتاب الخطط والآثار ، جزء أول ص ٣١٣

عمارة المساجد :

شيد مسجد بن طولون على مساحة مستطيلة يتوسطها صحن مربع مكشوف (تصميم ز) ويحيط بهذا الصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة ويتكون من خمس بلاطات ، على حين تتكون الأروقة الأخرى من بلاطتين . وترتكز عقود

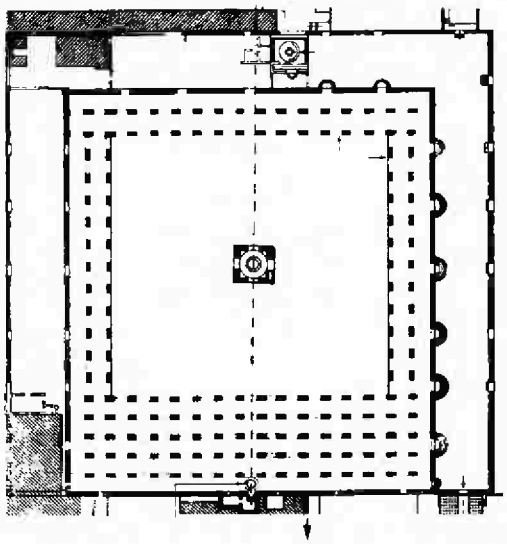

ز – تصميم جامع بن طولون بالقاهرة

هذه الأروقة المدببة الشكل على دعائم ضخمة من الآجر ، ويوجد بأركان الدعائم الأربع أعمدة مبنية بالآجر أيضاً [١] . وكان الغرض من وجودها زخرفيًّا فقط حيث يقع الثقل كله على الدعائم . ويخفف هذا الثقل فتحات ذات عقود مدببة تعلو الدعائم (ش ٣٩) ويلتف حول الفتحات والعقود أشرطة من الزخارف الجصية المنقوشة بزخارف ذات عناصر هندسية ونباتية . ولقد استخدم الآجر فقط فى عمارة هذا الجامع . ولا توجد بسور الجامع الدعائم نصف الدائرية الموجودة بسور جامع سمراء الكبير وإنما تقتصر على حنايا

(١) لاتظهر الأعمدة فى ذلك الجامع إلا فى القبلة فقط ، فنجد عمودين . وسبب ذلك أن أحمد ابن طولون رفض الاستعانة بأعمدة من الكنائس . المقريزى من كتاب المواعظ والاعتبار . ص ٢٦٤– ٢٦٥

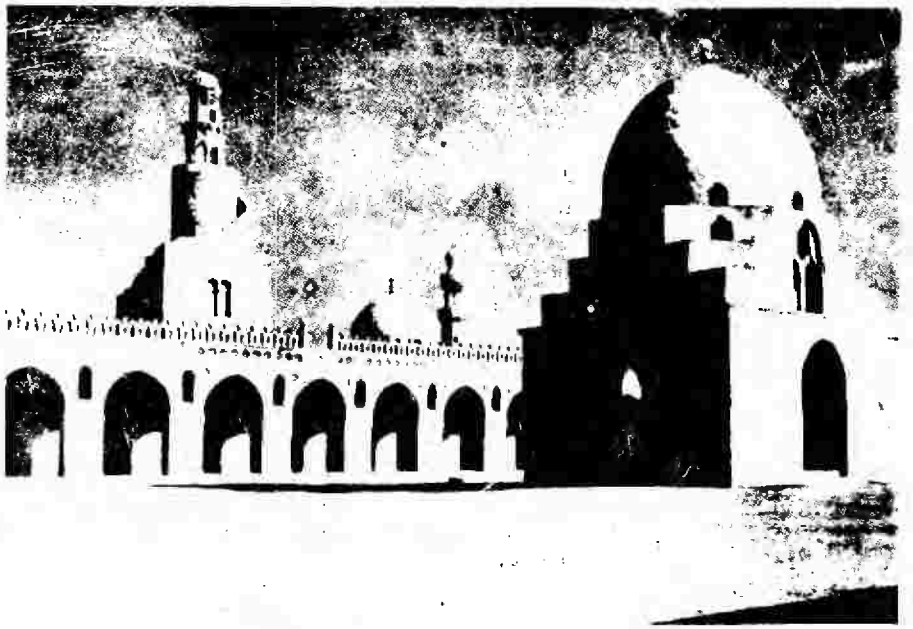

(شكل ٣٩)

جامع ابن طولون ، الفناء الداخلى وواجهة الإيوان الغربى ، والمئذنة ، القرن ٣ هـ – ٩ م ، القاهرة

(شكل ٤٠)

مئذنة جامع ابن طولون ، لاحظ وجه التشابه مع مئذنة السمراء (١٨ ب)

(شكل ٤١)

زخارف جصية بجامع ابن طولون .

(شكل ٤٢)

لوح من الخشب به زخارف حية مجردة ، الطراز العباسى فى مصر ، القرن ٣ هـ - ٩ م ، حالياً بمتحف اللوفر

(شكل ٤٣)

قطعة نسيج من العصر الطولونى فى مصر ، القرن ٣ هـ - ٩ م ، متحف الآثار الإسلامية ، القاهرة .

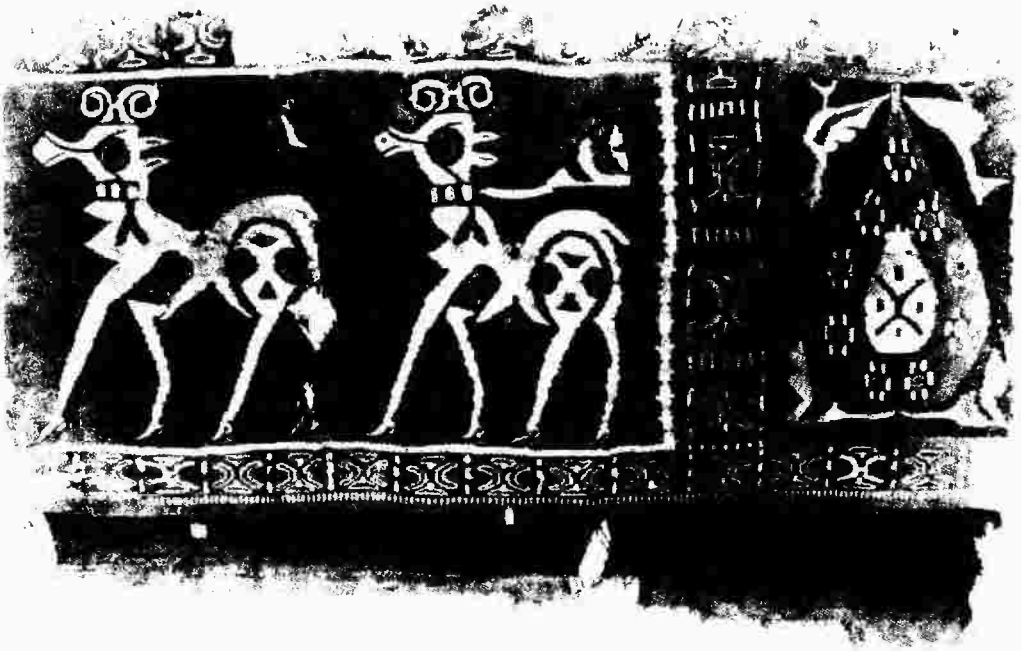

مستديرة بالواجهة القريبة من المدخل . ويحيط بالجامع ثلاثة أروقة خارجية أضيفت لتوسيع الجامع بعد ازدياد عدد المصلين وتعرف بالزيادات ، وهى تتشابه مع زيادات جامعى سمراء الكبير وأبى دلف بالعراق . وتقع مئذنة الجامع خارج السور الخارجى فى الزيادة الشمالية الغربية . وتصميم هذه المئذنة يعد صورة مكررة من مئذنة جامع سمراء الملوية ، حيث تتكون من قاعدةمربعة الشكل يعلوها جزء اسطوانى (ش ٤٠) . ويلتف حولها من الخارج درج يوصل إلى المنطقة العلوية ، كما ينتهى الجسم الاسطوانى بشكل مثمن من فوقه جسم آخر مغطى بقبة . ويرجح أن أحمد بن طولون قد استعان بمهندس من العراق لتشييد جامعه حيث ظهرت فيه أساليب معمارية جديدة لم تكن معروفة من قبل فى مصر ، فنلاحظ مثلا استخدام العقد المدبب على نطاق واسع ، كما استخدم الآجر بدلا من الحجارة فى تشييد الدعامات ، كذلك كسيت الجدران بطبقة من الجص المزخرف . ونلاحظ أن زخارف تيجان الأعمدة المتصلة بالجدران والأشرطة الجصية منقولة عن الفن العباسى بالعراق .

عمارة القصور :

لم يتمكن الباحثون حتى الآن من العثور على آثار قصر الميدان الذى شيده « أحمد بن طولون » فى مدينته القطائع ، ومن المرجح أن بعض العناصر العراقية التى وجدت فى قصور سمراء قد انتقلت إلى مصر ونفذت فى عمائر القطائع . ويؤيد ذلك ما كشفت عنه الحفائر فى عام ١٩٣٢ شمال مدينة الفسطاط ، حيث عثر على لوحات جصية مزخرفة فى منزل من العصر الطولونى ، وتتشابه هذه الزخارف مع زخارف سمراء . كما يؤيد فكرة الاقتباس عمارة جامع بن طولون المنقولة عن جامع سمراء .

الزخارف المعمارية :

الحفر على الجص :

انتقل أسلوب تزيين الجدران بالزخارف الجصية من العراق إلى مصر عن طريق الحكم الطولونى . ولم تكن هذه الطريقة معروفة بها من قبل وظهرت منها أمثلة فى

جامع بن طولون فى بطون العقود وحولها وحول النوافذ . ويلاحظ أن عناصر هذه الزخارف تتشابه مع ما هو موجود فى قصر الجوسق الخاقانى بمدينة سمراء ، إذ نرى أسلوب زخارف سمراء من المجموعتين الثانية والثالثة فى هذا الجامع . ويمكن نسبة هذه الزخارف إلى الطراز الثانى والثالث (ش ٤١) ، كما وجدت نماذج من أسلوب سمراء الثالث فى منزل من العهد الطولونى وعلى بطون العقود بالدير السريانى بوادى النطرون التى يمكن إرجاعها إلى القرن العاشر الميلادى .

ومن النماذج الجميلة للزخارف الجصية محراب بالجامع الذى ترجع صناعته إلى فترة بناء الجامع وتظهر به تعريقات نباتية وشريط من الكتابة الكوفية .

الفنون الصغيرة :

الحفر على الخشب :

كانت صناعة الأخشاب المنقوشة مزدهرة فى مصر منذ قديم الزمان ، واشتهر الأقباط بإتقان صناعتها ، ولقد استمر ازدهار هذه الصناعة فى العصور الإسلامية ، ويشهد على ذلك ما يوجد بالمتحف الإسلامى بالقاهرة من الأخشاب الطولونية المنقوشة التى تتكون من أبواب وألواح وأفاريز . ويظهر التطور العباسى واضحاً فى زخارف هذه الأخشاب حيث تنسب إلى أوائل العهد الطولونى الألواح التى تشتمل على العناصر الطبيعية كالمراوح النخيلية وتفريعات أوراق العنب وعناقيده . أما الألواح الخشبية الموجودة فى باطن أعتاب مسجد ابن طولون فيظهر بها أسلوب الطراز الثالث لزخارف سمراء ، وتتميز هذه الزخارف بأنها محفورة حفراً مائلا أو مشطوفاً ، وذلك ما تميز به أسلوب سمراء . كما يوجد بأعلى جدار المسجد إفريز خشبى مسجل عليه كتابات بخط كوفى بارز . ويتضح أسلوب سمراء التجريدى فى لوح من الخشب عثر عليه بمصر (ش ٤٢) مزخرف بزخارف حية مجردة[1] .

---

(١) تذكر المراجع التاريخية أن الأمير الطولونى خمارويه كان يحتفظ فى قصره بتماثيل خشبية له وجوارية – المقريزى – الخطط والآثار ج ٢ ص ٣١٦ Arnold. T. The painting in Islam . Oxford 1928 p. 241.

الخزف :

كانت صناعة الخزف من أهم الفنون الصغيرة التى برع المصريون فيها فى العصور الإسلامية الأولى . ولقد عثر على بعض قطع من الخزف فى أطلال مدينة الفسطاط أمكن إرجاعها إلى العصر الطولونى . وتدل دراسة هذه الكسر الخزفية على أن أساليب الصناعة فى ذلك العصر كانت تقليداً للنماذج العراقية ذات الزخارف البارزة التى وجدت فى العراق فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، على أن المصريين سرعان ما تميزت شخصيتهم فى زخارف هذه الأوانى .

كما أن مصر وصلت فى أواخر القرن التاسع إلى إنتاج الأوانى الخزفية ذات البريق المعدنى ، مما دعا بعض العلماء إلى القول بأن ابتكار البريق المعدنى ينسب إلى مصر وليس للعراق .

النسيج :

كانت صناعة المنسوجات مزدهرة فى مصر قبل الإسلام على يد الأقباط المهرة . وكانت هذه المنسوجات كتانية مزخرفة بأشرطة مزينة بوحدات زخرفية ملونة بخيوط الصوف . ولقد زاد الاهتمام بصناعة المنسوجات الفاخرة فى العصرين الأموى والعباسى بعد انتهاء فترة التقشف والزهد التى سادت العهود الإسلامية الأولى . وكان هذا الاهتمام واضحاً فى فترة حكم العباسيين ، حيث استخدم الحكام مصانع النسيج الحكومية الموجودة فى مصر فى إنتاج أفخر المنسوجات ، ولقد عرفت هذه المصانع باسم دور الطراز . وأمدت الدولة الطولونية الحكام فى بغداد وسائر البلاد الإسلامية بالمنسوجات الكتانية والحريرية لإهدائها كخلع إلى كبار رجال الحكم . وكان اسم الخليفة وألقابه تنسج أو تطرز على شريط النسيج ، بالإضافة إلى أشرطة تزخرف برسوم آدمية أو حيوانية [1] أو نباتية (ش ٤٣) . ويظهر نوع من التحوير فى هذه العناصر الحية وفقاً للتقاليد القبطية التى كانت متبعة لدى أقباط مصر .

ولقد عثر فى **سمراء** على قطعة نسيج كتانية تدل الكتابة الموجودة عليها على أنها صنعت بمدينة تنيس بمصر فى القرن التاسع الميلادى . كما عثر على قطع كثيرة

---

(١) انظر مقالة د. محمد مصطفى فى مجلة السياحة العدد الثالث عام ١٩٥٤

من صنع مصر عليها أسماء الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمعتضد والمقتدر وكانت بعض هذه القطع تحمل اسم الخليفة العباسى إلى جانب أسماء الحكام الطولونيين .

إيران وخراسان

(١) الدولة البويهية (٣٢٠ – ٤٤٧ هـ) (٩٣٢ – ١٠٥٥ م)

تمكنت الأسرة البويهية التى كانت تحكم فى غرب إيران جنوبى بحر قزوين من الاستقلال سياسيًا عن السلطة المركزية فى بغداد وذلك فى القرن التاسع الميلادى أى أواخر القرن الثالث الهجرى . وتمكنوا فى النصف الأول من القرن العاشر من ضم أجزاء من غرب وجنوب إيران إلى مملكتهم . واستمروا فى تقدمهم غرباً حتى وصلوا بغداد فى حوالى عام ٩٤٥ م ، وأجبروا الخليفة العباسى على التخلى لهم عن بعض أجزاء من العراق بعد أن صاروا الحكام الفعليين للدولة العباسية . وبالرغم من أن مذهبهم كان شيعيًا إلا أنهم كانوا يدينون للخليفة العباسى السنى بالزعامة الدينية والروحية . ولقد تمكن السلاجقة من طردهم من بغداد بعد ذلك .

ازدهرت الحياة الثقافية فى عصر البويهيين وظهرت فى مراكز حكمهم فى إيران والعراق حضارات وثقافات ذات طابع إيرانى خاص .

العمارة :

كان تصميم المسجد فى إيران فى العهود الإسلامية الأولى يتبع ثلاثة طرز : الأول مسجد مربع مقفول تغطيه قبة . مستمد من معابد النار الساسانية . والثانى المسجد ذو الإيوان المقبب المفتوح المستمد من القصور الساسانية . والثالث وهو الطراز العربى التقليدى الذى يتكون من صحن مكشوف تحيط به العقود من جهاته الأربع . ولقد ازدهرت هذه الطرز الثلاثة فى مساجد القرن التاسع الميلادى ، وظهرت نتائج هذا الامتزاج فى عصر البويهيين .

شيد فى عصر البويهيين مساجد ظهر بها التأثر بالأسلوب العباسى . وأقدم المساجد الذى لا يزال قائماً فى إيران هو مسجد مدينة نايين التى تقع بالقرب من

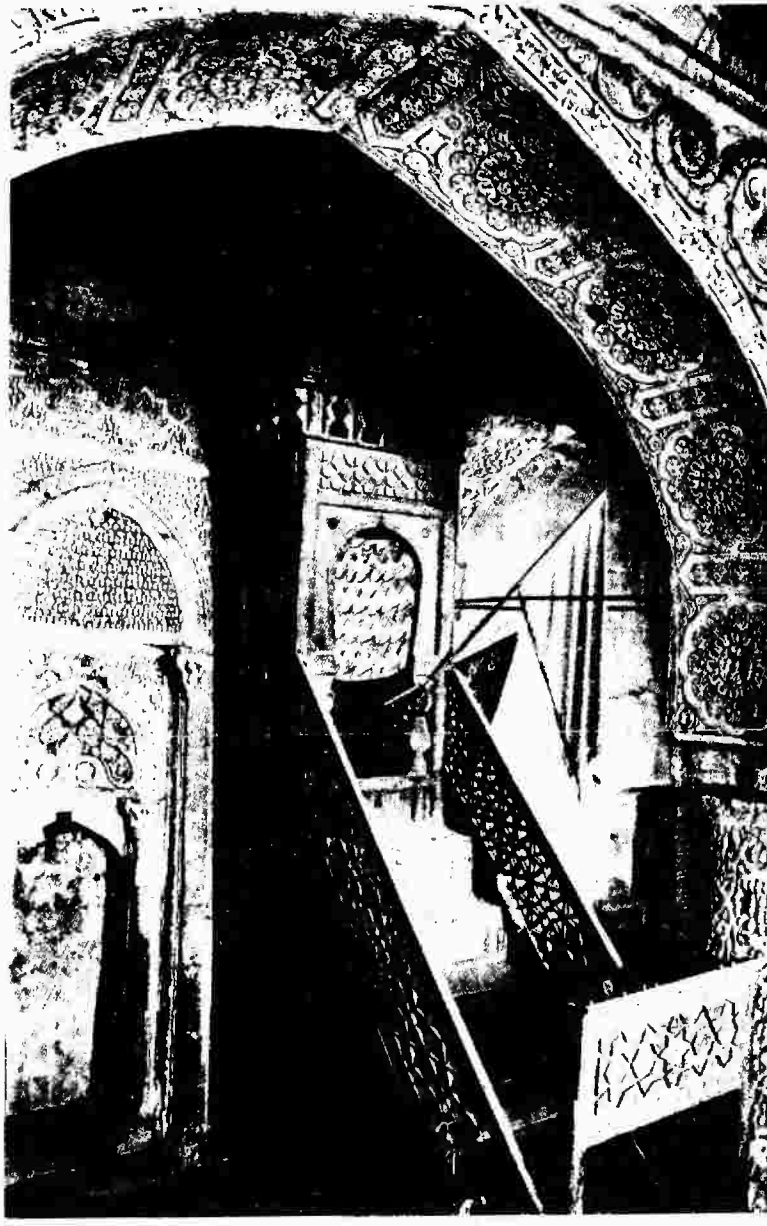

(شكل ٤٤)

زخارف جصية من جامع مدينة نايين بإيران ، العصر البويهى ، منتصف القرن ٤ هـ — ١٠ م .

(شكل ٤٥)

طبق فضى به زخارف حية ، البويهى، إيران ، القرن٤ هـ — متحف مدينة طهران ، إيران .

(شكل ٤٦)

أبريق من الذهب تظهر به زخا على هيئة حيوانات مجنحة برءوس آد العصر البويهى فى إيران والعراق القرن ٤ هـ — ١٠ م ، متحف ف واشنطن .

(شكل ٤٧)

طبق من الخزف (جيرى) وتظهر به زخارف مستمدة من الشاهنامة ، العصر البويهى . مقاطعة جاروس ، إيران ، القرن ٤ أو ٥ هـ — ١٠ م ، حالياً متحف المتروبوليتان نيويورك

(شكل ٤٨)

قطعة نسيج تظهر بها وحدة مستمدة من أساطير بلاد النهرين القديمة وهى شخصية البطل جلجامش القرن ٤ هـ - ١٠ م ، حالياً بمتحف اللوفر

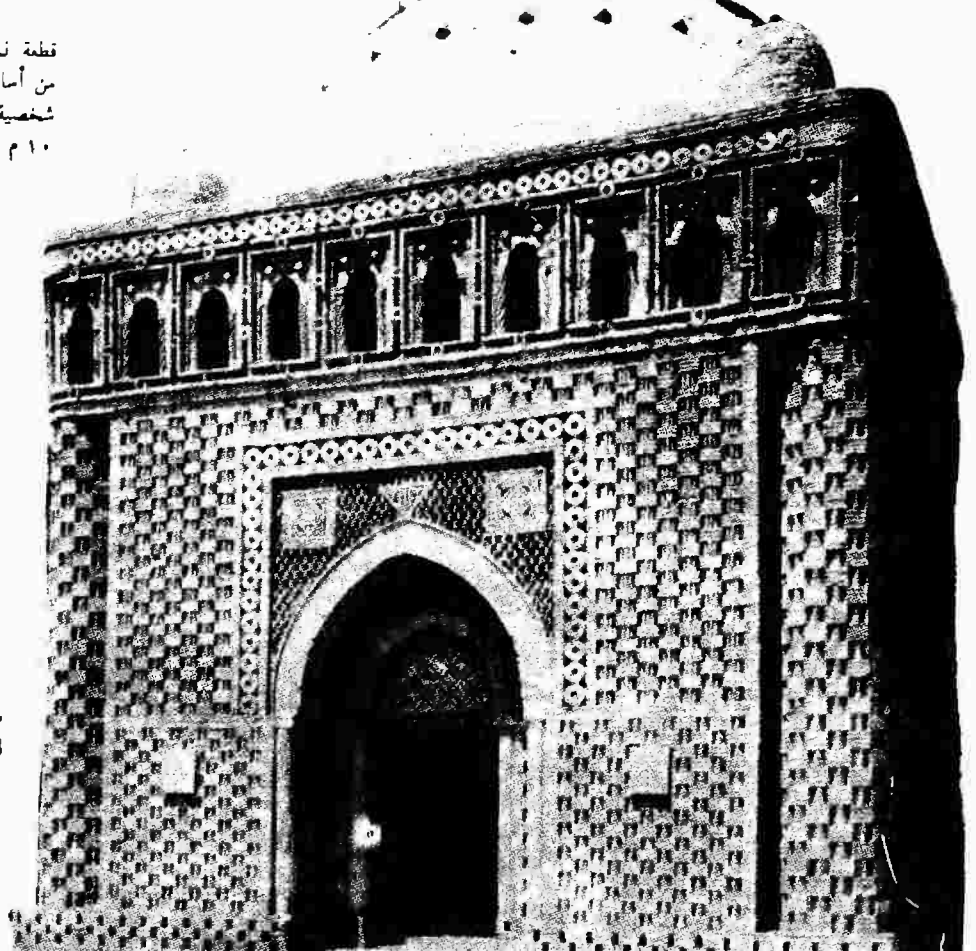

(شكل ٤٩)

ضريح أحمد السامانى بإقليم بخارا الدولة السامانية بإيران ، ٢٩٥ هـ ٩٠٧ م .

مدينة يزد . ولقد شيد هذا الجامع فى منتصف القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى، ويتكون من صحن مربع تحيط به أربعة أروقة . ويتوسط كل ضلع من أضلاع المربع عقد كبير ، يمكن اعتباره بدء ظهور فكرة الإيوان الذى انتشر بعد ذلك فى عمارة الجامع بإيران منذ العصر السلجوقى . وسقف هذا الجامع ليس خشبيًّا مسطحاً بل نجده مكوناً من قباب الآجر . ولقد تغير شكل الجامع من الإضافات التى أدخلت عليه بعد ذلك مما أخرجه عن تصميمه الأصلى .

وترجع أهمية هذا الجامع إلى الزخارف الجصية الجميلة التى تشبه زخارف السمراء والمسجد الطولونى ، وتعد أحسن نماذج للأسلوب العباسى حيث تظهر به زخارف من ورق العنب (ش ٤٤) وزخارف من المراوح النخيلية وأنصافها . ويظهر فى زخارف هذا المسجد الاتجاه الجديد نحو المبالغة فى تغطية المسطحات بالزخارف والعناصر الزخرفية المزدحمة . وتذكرنا بعض هذه الزخارف بالزخارف الجصية الموجودة فى دير السريان بمصر .

الفنون الصغيرة :

المعادن :

أتقن الإيرانيون صناعة المعادن فى العصر الساسانى قبل الإسلام ، وورث الفنانون المسلمون هذه الأساليب فى فجر الإسلام . واستمرت هذه التقاليد الساسانية متبعة فى صناعة الأوانى المعدنية فى عصر البويهيين سواء فى شكلها العام أو فى الزخارف المنقوشة عليها . وينسب إلى ذلك العصر عدة مداليات ذهبية منقوشة بزخارف تصور رؤوس أمرائهم [١] .

ويظهر تأثير التقاليد الساسانية فى مجموعة من الأوانى الفضية التى تستخدم للمائدة ، وصنعت لأحد كبراء إقليم أذربيجان فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . ويتضح من الموضوعات الزخرفية المنقوشة على أحد هذه الأطباق (ش ٤٥) تأثرها بالزخارف المنقوشة على الأطباق الفضية الساسانية ، مما دعا

---

(١) يوجد بالمتحف البريطانى مدالية خاصة بالأمير عزالدولة نقشت أحد وجهيها صورة الأمير جالسا يحف به شخصان .. وبالجهة الأخرى نقش يصور عازفة .

بعض العلماء إلى نسبتها إلى العصر الساسانى . إلا أن أسلوب حفر هذه الزخارف الذى يظهر به عناية فى بعض التفاصيل الدقيقة والمختلفة عن الأسلوب الساسانى أثبت صحة نسبتها إلى الحكام البويهيين . ويمكن اعتبار هذه التحف المعدنية حلقة الاتصال بين الطراز الساسانى والطراز الإسلامى الذى ظهر فى إيران .

ومن الأوانى المعدنية التى يتضح فيها ميل الفنان إلى الأساليب الساسانية ، إبريق من الذهب صنع للأمير « بختيار بن معز الدولة » ، أحد الحكام البويهيين الذين حكموا فى العراق من ٣٥٧ – ٣٦٧ هـ (٩٦٧ – ٩٧٧ م) (ش ٤٦) . وتظهر بهذا الإناء عناصر زخرفية عرفت فى إيران قبل الإسلام مثل الحيوانات المجنحة برؤوس آدمية الموجودة داخل الجامات البيضاوية . وذلك بالإضافة إلى الزخارف النباتية وشريط الكتابة الكوفية المنقوش على فوهة الإبريق .

الخزف :

كانت صناعة الخزف مزدهرة فى إيران منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ولقد استخدم الخزافون فى عصر البويهيين شتى الوسائل الزخرفية التى عرفت فى أوائل العصر الإسلامى . على أنه أمكن تمييز نوع خاص من بين أنواع الخزف ذو الزخارف المحفورة ، وذلك لظهور عناصر زخرفية حية به يبدو عليها مظهر الحياة والقوة تملأ سطح الإناء . واشتهر هذا النوع من الخزف باسم خزف « جبرى »[1] وتظهر فيه الزخارف بارزة مغطاة بالطلاء محاطة بمساحات محفورة حفراً عميقاً فى العجينة الحمراء المصنوع منها الإناء ، وذلك نتيجة انتزاع طبقة الطلاء المحيطة بالرسم ، فيبدو الجزء المنزوع طلاؤه بلون قاتم أو أحمر ، فى حين تظهر الوحدة المرسومة بارزة مغطاة بالطلاء الشفاف ، وبالرغم من جمال هذه الزخارف إلا أن أسلوبها البدائى يدل على أن إنتاجها من المصانع الريفية . وكان لهذا النوع من الخزف مراكز متعددة فى شمال إيران أشهرها إقليم جاروس ، كما وجدت نماذج منه فى إقليمى كردستان ومازندران .

---

(١) أطلق تجار الآثار اسم «جبرى» وهو اسم عبدة الشمس فى إيران على الخزف ذى الزخارف الحية ، لاعتقادهم أن من قام بإنتاجه لايمكن أن يكون مسلماً ، ونسبوه إلى عبدة الشمس قبل انتشار الدين الإسلامى .

ويمكن تمييز نوعين من بين أنواع هذا الخزف . الأول يتميز بلون واحد وحفر غير عميق ، والنوع الآخر يتميز بتعدد ألوان الطلاء الزاهية التى تكون عادة بالألوان الأصفر والأخضر مع بقع خضراء . ويظهر فى زخارف هذا النوع من الخزف تعدد أشكال العناصر الحية كالحيوانات والطيور الخرافية ، كما وجد فى بعضها زخارف آدمية (ش ٤٧). ويظن بعض الباحثين [١] أنها ربما تمثل شخصية الملك « ضحاك » الموجودة فى مخطوطة الشاهنامة « تاريخ الملوك » . وكان الشاعر الفردوسى مقيماً فى بلاط الملك محمود الغزنوى فى أفغانستان . وانتهى من كتابة المخطوطة عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م . وإذا كان هذا الفرض صحيحاً فيمكن اعتبار هذا الرسم أول محاولة لتصوير هذا المخطوط المشهور .

المنسوجات :

كتب مؤرخو العصور الوسطى المسلمون كثيراً عن ازدهار صناعة النسيج فى إيران فى العصر العباسى ، ولقد كانت هذه الصناعة متقدمة فى عصر البويهيين . ومن المنسوجات التى تنسب إلى عصرهم قطع حريرية موزعة على بعض المتاحف العالمية ترجع صناعتها إلى القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى . ولقد زينت هذه القطع بزخارف حية ونباتية إلى جانب العناصر الكتابية . وتساعد هذه العناصر الكتابية على تمييز هذه القطع وصبغها بالصبغة الإسلامية ، حيث إن الكثير من هذه العناصر الحية مثل الحيوانات المجنحة أو شجرة الحياة التى يحفها حيوانان أو طائران ، والآدمى الذى يصارع أسدين [٢] (ش ٤٨) كانت معروفة قبل الإسلام .

(ب) الدولة السمانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) (٨٧٤ — ٩٩٩ م)

استقرت هذه الأسرة التى يرجع نسبها إلى السمانيين فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت عاصمتهم الأولى بخارى ثم سمرقند فى إقليم التركستان . وقد تمكنوا فى عام ٢٨١ هـ — ٩٠١ م من ضم إقليم خراسان وعاصمته نيشابور (شمالى أفغانستان) إلى

---

(١) انظر جروبه ص ٤١ World of Islam. Ernst. I. Grube, Paul Hamlyn, London 1970.

(٢) عرفت شخصية جلجامش بطل الأساطير السومرية عند شعوب العالم القديم انظر كتابنا فنون الشرق الأوسط القديم ص ١٢٥ .

سلطانهم . وكان عصر الدولة السمانية من أزهر عصور الأقاليم الإسلامية ، وكان بلاطهم يجمع رجال العلم والأدب والشعر . ويعد عصرهم عصر النهضة للفن الإيرانى القومى .

العمارة :

لم تلق الحفريات التى قام بها متحف المتروبوليتان فى نيشابور الضوء الكافى على العمائر التى أقامها السمانيون فى القرن التاسع الميلادى . إلا أنه يمكن معرفة بعض المعلومات عن الأساليب الفنية المعمارية لذلك العصر ، من ضريح « إسماعيل بن أحمد » السمانى الذى توفى عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م ، وقد عثر عليه فى بخارى .

أقيم هذا الضريح على مساحة مربعة (ش ٤٩) ، ولقد استخدم الطوب الآجر على نطاق واسع فى عمارة هذا المبنى حيث غطيت واجهاته الأربع من الداخل ومن الخارج بقوالب الآجر فى ترتيب زخرفى جميل . ويظهر هذا الأسلوب الزخرفى لعمارة الجدران لأول مرة فى تاريخ العمارة الإسلامية. ويعلو الضريح قبة كما يوجد فى أركانه الأربعة أعمدة متصلة بالجدران تنتهى بأربع قباب صغيرة لا تظهر فى داخل المبنى ، وكان الغرض منها التأثير الزخرفى فقط . ويعلو الجدران الأربعة إفريز به صف من الفتحات الصغيرة تخفى الرقبة التى شيدت عليها القبة . ويعد هذا أيضاً ابتكاراً جديداً فى العمارة الإسلامية ، ولقد انتقل هذا الابتكار إلى آسيا الوسطى والهند وإيران فيما بعد . ولا شك أن هذا الضريح يعد من أهم العمائر التى شيدت فى العهود الإسلامية الأولى فى إيران .

ومن الأضرحة المبتكرة المشيدة على شكل برج ، ضريح يعرف باسم جنبادى قابوس (ش ٥٠) شيده حاكم إقليم جرجان الذى كان يدعى « قابوس » شمالى غرب نيشابور فى حوالى (٣٩٧ — ٣٩٨ هـ) (١٠١٦ — ١٠١٧ م) . ويعد هذا الضريح أكبر وأقدم مبنى معروف من الأضرحة البرجية التى ظهرت فى العمارة الإسلامية فى إيران فى العهود الأولى . ولو أن فكرة تشييد هذا المبنى كانت بغرض استخدامه كضريح ، إلا أنه من المعتقد أنه كان رمزاً لقوة الحاكم السياسية .

شيد هذا الضريح على قاعدة نجمية الشكل قطرها حوالى ١٥,٢٥ متراً ، ويبلغ

(شكل ٥٢)

طبق من الخزف به زخارف محفورة من صناعة إيران العصر السامانى فى القرن ٤ هـ - ١٠ م ، حالياً بمتحف اللوفر ، باريس .

(شكل ٥١)

زخارف جصية عثر عليها فى مباني مدينة نيشابور ، خوراسان بإيران ، القرن ٤ هـ - ١٠ م ، حالياً بمتحف المتروبوليتان ، نيويورك .

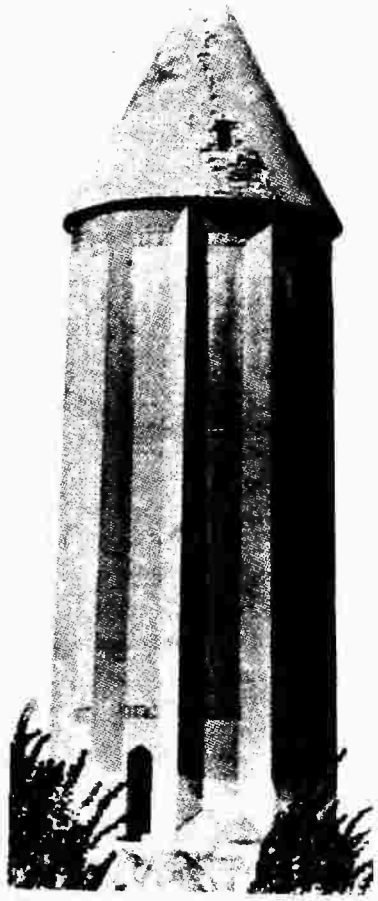

(شكل ٥٠)

ضريح « حمبادى قابوس » ، حاكم إقليم جرجان بإيران ، وهو أقدم ضريح برجى فى العمارة الإسلامية ٣٩٧ هـ - ١٠٠٦ م .

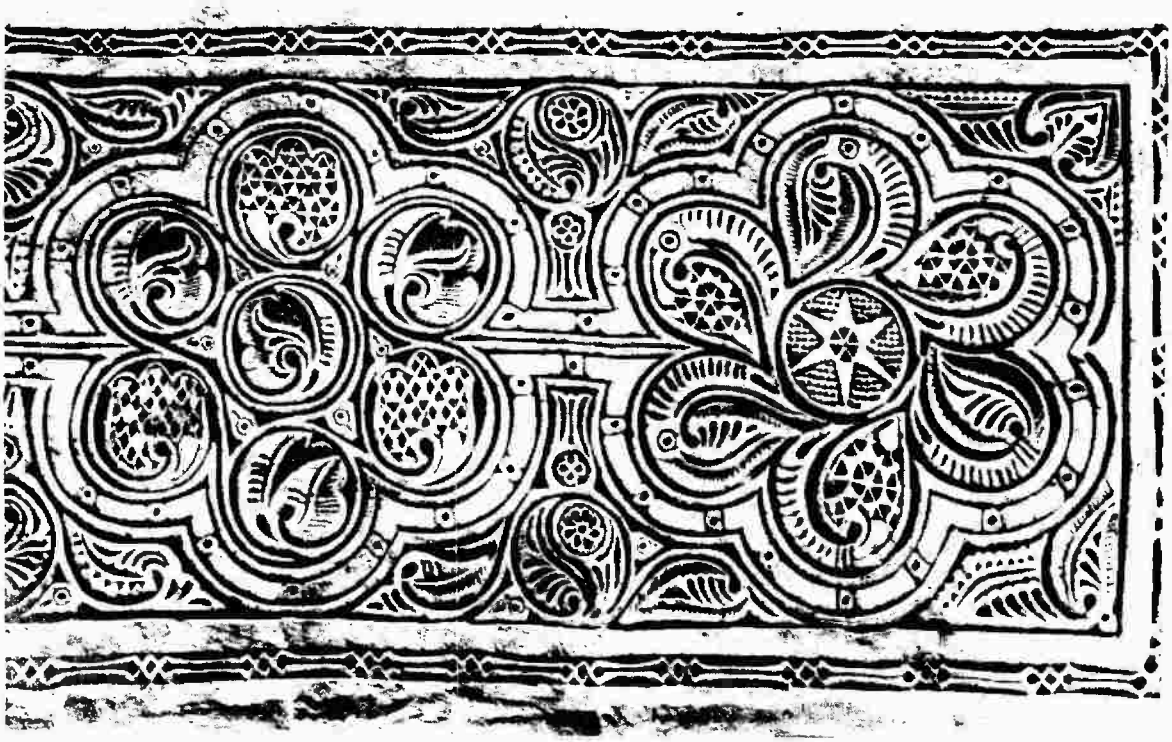

(شكل ٥٣)

سلطانية من الخزف من نيشابور ، إقليم خوراسان بإيران ، بها زخارف ملونة لوحدات آدمية وحيوانية ، القرن ٤ هـ – ١٠ م ، حالياً متحف المتروبوليتان .

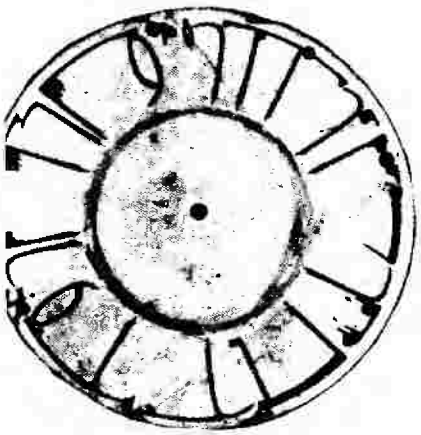

(شكل ٥٤)

طبق من الخزف من تركستان به زخ
كتابية بالخط الكوفى ، متحف اللو

(شكل ٥٥)

طبق من الخزف من نيشابور به زخ
كتابية باللون الأسود والأحمر
متحف فرير واشنطن ، تفضلا
المتحف .

(شكل ٥٦)

قطعة نسيج تخص القائد أبو منصور
بختكين ، إقليم خراسان ، القرن ٤ هـ –
١٠ م العصر السامانى ، حالياً بمتحف
اللوفر بفرنسا .

ارتفاع الضريح حوالى ٤٠ و٥٠ متراً . ويضيق قطر المبنى تدريجياً كلما ارتفع ، كما يعلوه غطاء مخروطى الشكل . ويزخرف جسم المبنى أشرطة من الكتابة المحفورة فى أعلى وأسفل الأسطح الاسطوانية تدل على تاريخ المبنى ولمن شيد .

الزخارف المعمارية :

النحت على الجص :

عثر على بعض الجدران المغطاة بزخارف جصية ملونة فى بعض المبانى فى نيشابور ، وتظهر فى بعض تلك الزخارف عناصر نباتية محصورة فى جامات سداسية (ش ٥١) وتضم هذه الجامات تفريعات المراوح النخيلية ومقتبساتها . ويشبه أسلوب زخارف نيشابور الجصية زخارف كل من سمراء ونايين ، كما نلاحظ أن المبالغة فى زخرفة المسطحات التى اشتهرت بها نايين ظهرت بدرجة كبيرة فى زخارف نيشابور الجصية : وتعد هذه الزخارف حلقة اتصال هامة بين الأسلوب العباسى والسلجوقى ، حيث ينسبها العلماء إلى أواخر القرن العاشر . ويظهر فى بعض زخارف نيشابور استمرار الأساليب الساسانية .

التصوير الجدارى :

كشفت حفريات نيشابور عن وجود تصاوير جدارية ملونة ذات موضوعات آدمية يمكن نسبتها إلى العصر العباسى الأول ، أى فى نهاية القرن الثامن أو التاسع الميلادى ، وذلك لأن أسلوبها لا يختلف كثيراً عن أسلوب تصاوير مدينة سمراء التى ترجع إلى القرن التاسع الميلادى . ويمكن تقسيم هذه التصاوير إلى مجموعتين من حيث أسلوب التنفيذ : المجموعة الأولى الموجودة بمتحف طهران حددت أشكالها بخطوط داكنة ثم لونت بلون واحد ، ويظهر بها فارس صياد يحمل صقراً على رسغه . أما المجموعة الثانية الموجودة بمتحف المتروبولتان فنلاحظ أنها متعددة الألوان . ويلاحظ فى طريقة رسم وجه السيدة الموجود بالصورة خليط من الأساليب الإيرانية والتركية المعروفة فى آسيا الوسطى والتى ستظهر بعد ذلك فى العصر السلجوقى ، مثل امتلاء الوجه واستدارته ، وضيق الأعين اللوزية الشكل ، ودقة الفم[1] .

---

(١) يحتفظ متحف المتروبوليتان بقطع فنية كثيرة عثر عليها فى نيشابور أثناء قيام بعثة المتحف بالتنقيب هناك . انظر ا . جروبه « ما قبله ش ٩ » .

ومن زخارف نيشابور الطريفة رسوم على شكل اليد أو العينين تظهر فى بعض الأحيان بين التفريعات النباتية المنتهية بالمراوح النخيلية ، ويفسر بعض العلماء هذه الأشكال بأن لها معانى سحرية لدفع الشر ، كما يحتمل أن ترمز هذه الأيدى إلى السيدة فاطمة ابنة النبى صلى الله عليه وسلم[١] .

الفنون الصغيرة :

الخزف :

من أهم ما ساهم به السمانيون فى الفن الإسلامى هو تشجيعهم لصناعة الخزف ، فازدهرت هذه الصناعة فى نيشابور ، كما صارت سمرقند منذ القرن التاسع الميلادى مركزاً مهمًّا لصناعة الخزف وخصوصاً بعد ضم إقليم خراسان إلى دولة السمانيين . وتدل الأوانى الخزفية الكثيرة التى عثر عليها فى هذين المركزين على أن الخزف ذا الزخارف المرسومة هو الذى كان مفضلا عند السمانيين ، بالرغم من إتقانهم للخزف ذى الزخارف المحفورة (ش ٥٢) . ولقد وجدت أنواع من الخزف تعد مقصورة على نيشابور ، كما وجدت بها أوان خزفية تشابه ما عثر عليه فى سمرقند .

ولقد زخرفت أوانى نيشابور بأشكال نباتية وطيور وحيوانات ووحدات آدمية وأشرطة من الكتابة الكوفية ، ورسمت هذه الزخارف بلون واحد أو بعدة ألوان . فيغطى الإناء بلون واحد ، ثم يوزع فوق السطح العناصر الزخرفية الملونة التى تكاد تغطى سطح الإناء ، ونجد فى أوانى نيشابور اهتمامًا بالتأثير بالألوان القوية . وأحسن مثال لذلك سلطانية ترجع إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) زخرفت بوحدات آدمية وحيوانية ونباتية بالألوان الأسود والأخضر والأصفر ، (ش٥٣) على أرضية بيضاء . وتظهر الوحدات الرئيسية التى تزين الجزء المتوسط من السلطانية مرسومة بحجم كبير ويحيط بها زخارف نباتية وطيور تغطى الأرضية . ويلتف حول السلطانية إطار به زخارف كتابية . ويلاحظ أن زخارف الأوانى ذات الألوان المتعددة ربما نقلت عناصره من المخطوطات المصورة .

وكان للزخرفة الكتابية نصيب كبير من اهتمام الخزافين فى خراسان وسمرقند ،

---

(١) الفنون الإسلامية : م . ديماند ، ترجمة أحمد محمد عيسى ص ٣٩ .

ويظهر ذلك فى مجموعة من السلاطين ذات كتابات بلون أسود أو بنى غامق أو بنفسجى على طبقة بيضاء تحت الدهان . وتتكون الزخرفة الكتابية الموجودة على سطح الإناء إما من كلمة واحدة فى قلب الإناء أو من بعض الكلمات حول حافته (ش ٥٤) . وقد تظهر مع الكتابة مراوح نخيلية أو طيور ، كما يضيف الفنان أحياناً بعض الخطوط القصيرة فوق الكتابات السوداء بلون أحمر (ش ٥٥) لا نراه فى سائر أنواع الخزف الإيرانى ، أو يرسم الحروف كلها باللون البنى الغامق ثم يحددها باللون الأسود.

وتدل حفائر نيشابور على أن الخزافين بالرغم من تمكنهم من إنتاج أوان فى غاية الدقة فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى ، إلا أنهم لم يتمكنوا من معرفة سر الطلاء المعدنى ، حيث يلاحظ فى بعض الأوانى التى عثر عليها أن الخزافين قد قاموا بمحاولات لتقليد طريقة الخزف ذى البريق المعدنى المعروف فى بغداد وذلك بتغطيته ببريق لامع . إلا أنهم لم يصلوا إلى معرفة أسلوب الزخرفة بالطلاء المعدنى الموجودة بالعراق .

المنسوجات :

اشتهرت سمرقند كمركز مهم لصناعة النسيج ، ويرجع كثير من العلماء نسبة بعض قطع المنسوجات الحريرية الموجودة فى بعض المتاحف والمزينة بأزواج من الحيوانات داخل دوائر إلى إنتاج سمرقند . على أنه أمكن التأكد من نسبة صناعة إحدى هذه القطع الحريرية إلى خراسان فى القرن الرابع الهجرى أى العاشر الميلادى ، وذلك من الكتابة الموجودة بها. فنلاحظ بهذه القطعة (ش ٥٦) اسم القائد أبى منصور بختكين المتوفى فى خراسان عام ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م ، وكان هذا القائد فى بلاط « عبد الملك بن نوح » أمير خراسان وبلاد ما وراء النهرين . ويظهر فى زخارف هذه القطعة فيلان متقابلان يحف بهما صف من الجمال والطواويس .

الغزنويون

الغُزنويون (٣٥١ – ٥٨٢ هـ) (٩٦٢ – ١١٨٦ م)

تمكنت الأسرة التركية الحاكمة فى ولاية « غزنة » – حالياً أفغانستان – من الاستقلال سياسياً عن الخلافة العباسية فى بغداد، وكان ذلك فى عصر الحاكم « سابو كتاجين » (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ) (٩٧٦ – ٩٩٧ م) . ونجح خليفته السلطان محمود الغزنوى (٣٨٩ – ٤٢١ هـ) (٩٩٨ – ١٠٣٠ م) فى توسيع رقعة دولته وذلك بضم شمالى الهند وإقليم البنجاب إليه . وانتهى حكم هذه الأسرة التركية بغزو تركى آخر قام به السلاجقة . ولقد كان عصر هذه الأسرة من أزهر عصور الأقاليم الإسلامية ثقافة وأدباً ، والتحق ببلاط السلطان محمود ، الشاعر الفارسى الكبير « الفردوسى » (٩٣٥ – ١٠٢٠ م) وأتم كتابة مخطوطه « الشاهنامه » أو « كتاب الملوك » للسلطان فى عام ٤٠٠هـ – ١٠١٠ م . وتجمع هذه المخطوطة بين الأحداث التاريخية والأساطير الفارسية القديمة .

العمارة :

لم يبق للأسف أثر للجامع الذى شيده محمود الغزنوى راعى الفنون ، ويقتصر ما تبقى من عمائر الغزنويين على برجين لا يزالان قائمين ، ينسب أحدهما إلى السلطان محمود ، وشيد الآخر السلطان مسعود الثالث فى عام ١١١٤ م (ش ٥٧) . ويتضح من دراسة هذه الأبراج ، ميل الغزنويين إلى استخدام الطوب الآجر فى إحداث تأثير زخرفى جميل بالسطح الخارجى . ويظهر بأعلى البرج أشرطة من الكتابة الكوفية المورقة فوق أرضية من زخارف الأرابسك (٥٧ ا) .

ولقد كشفت الحفريات التى تمت فى مدينة «لاشكارى بازار» عن وجود تصاوير جدارية ملونة لشخصيات آدمية (ش ٥٨) فى قصور الغزنويين ترجع إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ويظهر من دراسة هذه الآثار تأثر الفنان بأسلوب

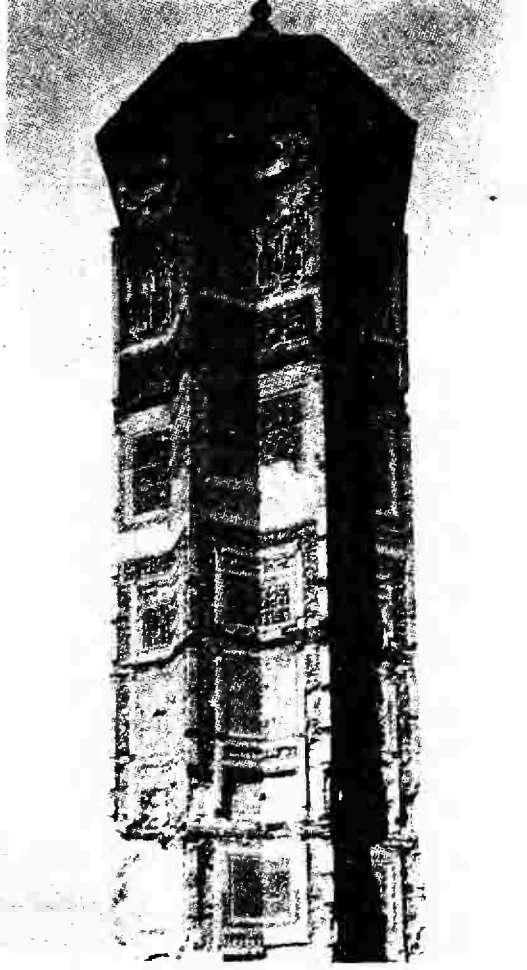

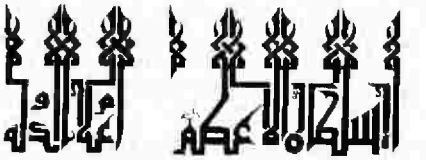

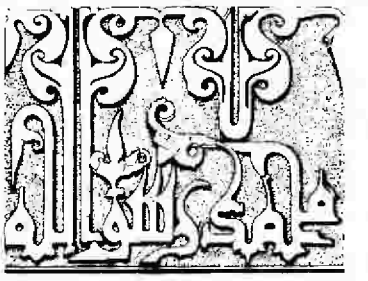

(شكل ٥٧ و ٥٧ ا)

منارة الملك مسعود الثالث بولاية غزنة (حالياً أفغانستان) أوائل القرن ٦ هـ – ١٢ م . ونرى فى ٥٧ ا أشرطة من الكتابة الكوفية المورقة الموجودة بأعلى المنارة .

(شكل ٥٨)

تصوير جدارى عثر عليه فى قصور الغزنويين ، مدينة لاشكارى بازار ، أفغانستان

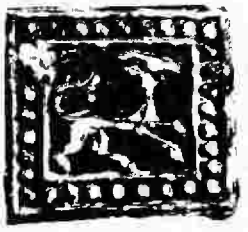

(شكل ٥٩)

ألواح حجرية وخزفية عثر عليها فى ولاية غزنة ، أفغانستان ، القرن ٤ هـ – ١٠ م حالياً مجموعة خاصة بأمريكا .

تصاوير مدينة سمراء [١] . كما أسفرت الحفريات عن بلاطات وألواح منقوشة حجرية كانت تغطى الجدران بوحدات حيوانية (ش ٥٩) .

يتضح من دراسة الفن العباسى ، أن انتقال الخلافة الإسلامية من دمشق إلى العراق كان له أثر كبير فى الثقافة الإسلامية ، التى كانت متأثرة حتى ذلك الوقت بالتأثيرات الكلاسيكية الموجودة فى سوريا . وكان من نتيجة انتشار الثقافة الإيرانية على يد العناصر الفارسية التى استعان بها الحكام فى الخمسين سنة الأولى من حكمهم ، بدء حقبة جديدة فى الفن الإسلامى تظهر بها المؤثرات الفنية الساسانية ، فى الوقت الذى قلت فيه الأساليب الهيلينسيتة والبيزنطية . وبدأ ظهور هذا الأسلوب الجديد بعد تشييد مدينة بغداد . كما تأثر الفن العباسى بفنون الأتراك الذين ظهر نفوذهم لأول مرة فى العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، حيث اكتسب الفن الإسلامى عناصر وأساليب زخرفية مستمدة من أواسط آسيا لم تكن معروفة فى الفن البيزنطى والفن الساسانى . ولقد بدأ ظهور هذا الطراز فى مدينة سمراء . وتعد طريقة الحفر المشطوف التى ظهرت فى المنحوتات الحجرية والجصية والخشبية فى أوائل العصر العباسى ابتكاراً خاصاً بطراز الفن العباسى الذى طعم بالفن التركى . وكان من نتيجة إمتزاج الإيرانيين والترك بالعرب فى العصر العباسى ، دخول أشكال زخرفية جديدة فى الفن الإسلامى تظهر فيها ملامح من الفنين الساسانى والتركى ، ويرجع الفضل إلى هذا العصر فى ظهور الزخارف المجردة المحورة عن العناصر الطبيعية الكلاسيكية . ولقد أثرت هذه الزخارف الهندسية فى تطور زخرفة التوريق ، ويعد ذلك الخطوة الأولى فى ابتداء ظهور أسلوب زخارف الفن الإسلامى الذى عرف باسم الأرابيسك . ومن أهم إنجازات العصر العباسى اكتشاف طلاء الأوانى الخزفية بالبريق المعدنى ، ولقد انتشر هذا الأسلوب إلى بقية العالم الإسلامى .

ولقد انتقل هذا الطراز العباسى الذى ظهر فى سمراء إلى الولايات الإسلامية الأخرى التى استقلت عن الدولة العباسية وذلك عن طريق الحكام المحليين ، فظهر فى مصر فى العهد الطولونى ، وفى إيران فى عصر البويهيين ، وفى خراسان وبلاد ما وراء النهر على يد السمانيين ، وفى أفغانستان والبنجاب على يد الغزنويين .

---

(١) انظر مقالة الأستاذ "Schlumberger G." — Le Palais Ghasnavid de Lashkari Bazar فى مجلة Syria, XXIX (1952) ، ص ٢٥١